أنيس منصور

لحظات مسروقة

دار الشروق

لحظات مسروقة

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الثانية
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
الطبعة الثالثة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

وهذا هو رأيي شخصياً!

سألني مذيع إحدى المحطات العالمية: هذه أسئلة شخصية.. وأنت حر في أن تجيب عنها أو لا تفعل. فأنا أتحدث إلى الشخص والإنسان الذي هو أنت.. دون أن أتعرض لصفاتك الأخرى.. إن كنت رئيس تحرير أو رئيس مجلس إدارة أو عضواً في مجلس الشورى.. أنت شخصياً.

قلت: أوافق على هذه الشروط.

سؤال: ما رأيك في تنظيم النسل.

جواب: أنا لا أوافق عليه.. فكل إنسان حر في أن يكون له ما يشاء من الأطفال.. إنه حر في أن يحمل وزر الأطفال ما دام قد اختار أن يكون زوجاً.. فإذا كان الزواج جريمة، فالأطفال أكبر عقوبة.. وكل إنسان حر في أن يختار السجن والعقوبة التي يريدها.

سؤال: ولكن هذا ضد سياسة الدولة.. أو ضد سياسة دول العالم كله؟.

قلت: ضد الدولة؟ عليكن. فهذا رأيي. ثم إن هناك دولاً تغري الناس بأن يتزوجوا وأن يكون لهم أولاد أكثر. مثل

بريطانيا وفرنسا وسويسرا وإسرائيل . . فهم لا يتنزايدون أو يهـددون بزحف الأجانـب عليهـم . . وفـي بلادي ، ينظـر الفلاح والعامل إلى أولاده على أنهم «أدوات إنتـاج» مثـل الفأس والمنشار . . فهم يأتون له بالمال الوفير . . فالعامـل والفلاح يتقاضون أجراً عالياً . . فالأولاد مصدر رزق . . ولا يزال الفلاح يحزن لموت الجاموسة أكثر مما يحزنه أن يموت ابنه . . فهو قادر على أن يأتي بولد جديد ، وليس قادراً على أن يأتي بجاموسه كل تسعة شهور!

سؤال : وهل من رأيك تعدد الزوجات؟

جواب : إذا كان من رأيي أن يأتي الإنسان بأي عدد من الأطفال ، فلا يهم إن كان ذلك من زوجة واحدة أو أكثر . . إنه حر!

سؤال : ألا ترى أنك تتمسك بمبادىء قديمة بالية . . وإن العالم كله ضد كثرة الأطفال وضد تعدد الزوجات؟

جواب : أنت قلت إنك تسألني بصفتي الشخصية . . هذا هو رأيي الشخصي . . ولكي أكون أكثر وضوحاً فإنني مدين بوجودي إلى عدم تحديد النسل . . فنحن أحد عشر أخـاً . . وترتيبي التاسع . . وأنا ضد الإكتفاء بالزوجة الواحدة . . فقد تزوج أبي مرتين . . وأنـا إبن الزوجـة الثـانية ـ ، هذه هي الأسباب الشخصية جداً . ولكنني مع مبـدأ حرية الخطـأ . .

وحرية اختيار الخطأ، وبالتالي اختيار العقوبة. . فالذي يرتكب الجنحة يلقى جزاءها، والذي يعترف بالجريمة، يلقى عقابها. . والإنسان حر في أن يختار الكف الذي يصفع قفاه!

سؤال: بصفتك الشخصية أيضاً هل ترى أن الحب شرط الزواج أو أن الزواج هو شرط الحب.

جواب: لا يهم أن يجيء الحب. . ولا يهم كيف يكون ترتيب الزواج. . فأنت عندما تريد أن تشتري شيئاً. . فليس في كل الأحوال قد قررت أن تشتري هذا الشيء بالذات. . وإنما يحدث في كثير من الأحيان ألا يكون في نيتك أن تشتري، المرأة أحسن نموذج لذلك. فهي تقرر أن تشتري أي شيء. وتذهب إلى المحلات. وترى البضائع وترى غيرها من النساء. ثم تشتري وتشتري وتشتري، وتبحث بعد ذلك عن الأسباب والمبررات التي جعلتها تفعل ذلك. . ولا شيء يدل على أن المرأة «عصبية» وعلى أنها مرهقة إلا إسرافها في الشراء. . فهي تشتري أولاً، ثم تستريح إلى الذي فعلته بعد ذلك. . تستريح إلى المبررات التي تسوقها دائماً. . فلا يهم إن كانت البضائع قد سبقت الرغبة في شرائها، أو إنها الرغبة في الشراء هي التي سبقت شراء البضائع. . وكذلك الزواج قبل الحب، أو إنه الحب قبل الزواج. . فالرجل عادة يتساءل: كيف تزوج هذه الفتاة بالذات؟ والمرأة تتساءل: كيف أحبت هذا الفتى بالذات. ؟

سؤال: هل لديك أقوال أخرى؟

جواب: طبعاً.

سؤال: هل تريد أن تضيف شيئاً إلى الذي قلت.. أو هل لديك رغبة في تعديله أو العدول عنه؟

جواب: عندي كل ذلك.. فالمعنى الواحد من الممكن - من الواجب أحياناً - أن أقوله بألف شكل.. فإن كنت أتحدث إلى طفل، قلت شيئاً.. وإن كان شاباً.. وإن كان في مجلة أدبية أو مجلة سياسية أو مجلة دينية، أو مجلة جنسية. وليس معنى ذلك أن أغير وأبدل في الذي أريد أن أقول.. ولكن أن اختار اللفظ والأسلوب المناسب للمعنى.. أي المناسب للمكان والزمان والشخص الذي أتوجه إليه..

فالمعنى يختار الشكل المناسب له.. تماماً كما أن الشاي يختار الكوب.. والقهوة تختار الفنجان.. والشوكة والسكين للحمة.. والملعقة للشوربة.. والحمار للطريق الوعر، والسيارة للشارع، والطيارة للهواء.. وهكذا..

سؤال: إذن؟

جواب: إذن لو أرسلت لي والدك أو والدتك.. أو رئيسك لكان كلامي مختلفاً.. نفس المعاني ولكن في أوعية لفظية أخرى..

سؤال : إذن كيف أنظر إليك؟

جواب : انظر بعيني إلى عيني . . وحاسبني بقولي على قولي . . واستخدم موازيني في وزني ، ومقاييسي في قياسي . . فأنا شاهد على نفسي . . فاقفز إلى مقعدي ، وادخل في ملابسي وفي حذائي . . لتقول الذي أقول . . فقد وضعت لي شرطاً مبدئياً هو أن أكون شخصياً جداً في كل الذي أقول . وقد فعلت !

سؤال : أخيراً . . إذن ما هو الحب؟

جواب : هو أن تنشغل بشخص يعجبك !

سؤال : والكراهية؟

جواب : أن تنشغل بشخص لا يعجبك . . ولذلك فالحب والكراهية متشابهان . فكلاهما انشغال بشخص آخر . ولذلك كان من السهل أن يتحول الحب إلى كراهية والكراهية إلى حب . . والمثل الذي يقول : لا محبة إلا بعد عداوة صحيح . . وصحيح أيضاً المثل الذي يقول : ولا عداوة إلا بعد محبة أيضاً !

أنت واحد من اثنين !

الناس نوعان :

أناس عندهم حيوية وليست عندهم طاقة . .

وأناس عندهم طاقة وليست عندهم حيوية . وأنا واحد من هؤلاء . . وأكثر الأدباء والشعراء والفنانين والفلاسفة والرهبان والصعاليك . ففي استطاعتي أن أجلس إلى مكتبي عشر ساعات . . وعشرين ساعة . . دون أن أحرك يداً أو قدماً . . وإنما فقط أقلب في الورق أو استمع إلى الموسيقى . . أو أمد يدي في فنجان القهوة . . أو أتراجع في مقعدي وأنظر إلى السقف . . أو أنظر إلى نفسي . . إلى الذي في داخلي . ..وقد أرى وقد لا أرى شيئاً . . وإنما أظل هكذا سلحفاة تمشي في مجاهل الفكر . . أو نسراً بليداً يتمدد في شمس الأدب . . أو أعمى يطارد غراباً أسود في ليلة مظلمة ، كما يفعل الفلاسفة . .

فأنا ، وآخرون ، هكذا نتحرك داخلياً ولفترات طويلة دون أن ننقل قدماً عن قدم .

وكان الشاعر الإنجليزي والتر سكوت ، يمضي يومه نائماً

تحت شجرة . . فإذا ضاق بالنوم على ظهره نام على أحد جانبيه يوماً كاملاً . . ويقول : ويجيء الشعر كنسيم الشمال!

تماماً كما ينام الطائر على بيضه . . وكما تنام السيدة الحامل لتتيح للحياة أن تنمو وتكتمل في داخلها . .

والمثل الأعلى لهذه النوعية من الناس : أن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب . وهو مثل لاتيني قديم . ولذلك يجب أن يركن الواحد إلى حائط، أو إلى جبل ، أو إلى مكتب ، أو إلى وسادة . . سواء كانت هذه الوسادة مادية من القطن أو الحرير، أو وسادة دينية أو سياسية أو فلسفية أو وهمية . .

وكان أستاذنا العظيم سقراط إذا أراد أن يتفلسف فإنه يجلس على سلالم أي معبد . . أو أمام أي بيت ويروح يضرب الفكرة بالفكرة . . ومن الشرر الذي يتطاير ينير العقول ويضيء الطريق إلى معرفة الحقيقة . ويقول إنه يمتهن نفس المهنة التي امتهنتها أمه . . فقد كانت «قابلة» ، أي مولِّدة . . وكان هو أيضاً يولد المعاني . . يولد عقول الرجال . وكان يعتقد أن كل المعاني موجودة عند كل الناس . ولكننا في حاجة إلى نبش العقول لكي نجدها وراء غشاوة الجهل . . وكان مثل الفنان النحات العظيم ميكلونجلو . . ينظر إلى الحجارة ويبحث عن التمثال . . فهو يرى أن تمثال أي إنسان موجود في الحجر . . في الصخر . . وأن مهمة

الفنان هو أن يكشف عنه هذا الغطاء، وهي عبارة سهلة ولكن كشف الغطاء يحتاج إلى عبقرية!

أما الذين عندهم حيوية وليست عندهم طاقة، فهم الذين يتفجرون بالنشاط الحركي.. ينتقلون من مكان إلى مكان ومن قضية إلى أخرى.. ويعبرون عن ذلك بالكلمة.. بالخطابة.. بالموعظة.. بالمحادثات التليفونية ساعات، وبالزيارات الاجتماعية، - أكثر رجال الإدارة وسيدات المجتمع ورجال السياسة من هذه النوعية. ولذلك فأفكارهم تأتيهم أثناء الحركة. وهم يفكرون وهم يتكلمون وهم يتحركون.. والمثل الأعلى لهؤلاء كان نابليون. فهو يركب حصانه وينام على ظهره ويلتفت يميناً يملي خطاباً ويساراً يملي خطاباً آخر.. وينظر إلى تحت فيرد تحية ضابطمات في سبيله.. وينظر وراءه يطلب إلى مساعده أن يبحث له عن فتاة جميلة وعن مكان هادىء ونوع خاص من النبيذ.. كل ذلك في وقت واحد.. ثم يرفع رأسه يبحث عن «النجمة» التي تبرق في السماء دليلاً على أنه على اتصال مستمر بإرادة الله.. والقدر.. وأن إرادته من إرادة الله.. وأن الذي يفعله على الأرض قد أعدته السماء واختارته وحده لكي ينفذه..

والفيلسوف أفلاطون عندما اختار الدولة المثالية أو المدينة الفاضلة أخرج منها الشعراء.. أي أخرج منها هؤلاء

الكسالى الـذين يصورون الحيـاة ويوهمـون النـاس بإنهـا الحقيقة . مع أن الدنيا ليست إلا صورة زائلة للحقيقة التـي يجب أن نهتم بهـا . . فالشعـر هو صورة الصورة . . أي هو صدى الأصوات الزائفـة ، وصورة الصورة الفانيـة . . والشعراء هم عباد الوهم ، عشاق الخرافة ، دعاة الضلال . . أما الفلاسفـة فهـم الباحثـون عن الصدق ، وراء الكـذب ، والحقيقـة وراء الوهـم ، والثابـت وراء المتغيـر الزائـل . . صحيح أن الفلاسفة لا يتحركـون ، ولـكن أفكارهـم تحـرك الجبال . . ولذلك فإذا كانت للفلاسفة طاقة ، ولم تكن لهم حيوية ، فالساسة الذين ينفذون أفكارهم ، هم الـذين لهـم حيوية تتجدد . . ولكنها تنفذ أيضاً بسرعة . فلا بد من ساسة كثيرين . . لا بد من أناس عمليين كثيرين . . ولكن لا بد من مفكرين قلائل وفلاسفة أقل . .

وفي البيت وفي العش كما هي الدوَلة ـ هناك طيور ينامون على البيض ويحرسون البيض ، وهناك من يبني البيت ويأتي بالطعام ويحمي الصغار من الوحوش . .

وأعظم إنجازات المرأة : أن تلد طفلاً . . والمرأة لا تلد وهي تجري . . فالإبـداع والخلـق يحتـاج إلـى الـدفـء . . والدفء يحتاج إلى العش . . والعش لم يتم بناؤه إلا وفقـاً لفكرة . . لحظـة . . وبنـاء العش حركـة وحيويـة . . ولـكن الخطة قد تمت بهدوء وتفكير وتدبير ، وبلا حركة . .

ولو أسلمنا أنفسنا لأصحاب الأفكار والأشعار، ما قامت دولة، ولا حضارة.. ولو تركنا أنفسنا للذين يجرون ويسارعون ويصارعون دون أن يكون لهم هدف.. خطة.. برنامج.. فقط ينطلقون يميناً وشمالاً إيماناً منهم بأن «الحركة بركة»، ما تقدمنا شبراً واحداً. فالحركة بلا هدف: ضياع.. والهدف بلا حركة: وهم..

والحضارة هي الزواج السعيد، بين أصحاب الطاقة وبين أصحاب الحيوية، بين الشعراء والفلاسفة، أو بين المطربين والعلماء..

ولا علم بلا شعر، أي لا تقدم بلا خيال.. ولا يزال العلماء يمشون وراء الشعراء.. أي وراء الذين يذهبون بعيداً ويسبقوننا ويحلمون بالمستحيل.. والعلماء انبهاراً بالشعراء، ينطلقون وراءهم ويجعلون الصعب سهلاً والمستحيل ممكناً، والقمر أرضاً.. ومن أرض القمر تنطلق صواريخ إلى أقمار أخرى!

أضعف مما تتصور!

وإذا كان الناس يعبدون الله، فإنهم يعبدون إلى جواره آلهة أخرى: الفلوس والمرأة والقوة.

هذه الآلهة هي النار التي يلتوي بها ويلتوي فيها أقوى الأقوياء..

انظر إلى الفرن.. أنظر إلى العجين يدخل الفرن.. وكيف ينتفخ ويتلوى ويخرج منه البخار والدخان ويحترق ـ أنت كذلك ولكنك لا تدري!

وهذا هو الضعف الإنساني..

والذين يتاجرون في ضعف الإنسان يسلطون عليه هذه القوى ليعرفوا أعماقه. وهذا هو الدرس الأول في أجهزة المخابرات أي أجهزة جمع المعلومات من أجل حماية الدولة.

والدرس الثاني: إن كل إنسان له ثمن.. هذا الثمن يعلو ويهبط حسب الظروف.. ولكن له ثمن.

ولذلك فأجهزة الأمن القومي عندما تراقب الرجال، فإنها تسلط عليهم أقرب الناس إليهم. أي أكثر الناس علماً بنقاط ضعفهم. ولذلك كانت الزوجة والأبناء والأصدقاء والسائق

والحلاق والسكرتير من بين عيون أجهزة أمن الدولة . .

وربما كان أول من لجأ إلى استخدام النساء في التجسس وزير خارجية النمسا الأمير مترنيج . فقد كانت مدينة فيينا عاصمة النمسا أعظم مكان في العالم لجمع المعلومات ففيها الكثير من الكباريهات وفيها الكثير من الغانيات، جئن إليها من كل العواصم . والغانيات يحقدن على الزوجات اللاتي ينعمن بأموال أزواجهن واحترام الناس، مع أنهن دميمات غبيات .

وكان الأمير مترنيج يجمع الغانيات ويعلمهن كيف يتجسسن على خصومه من النمساويين والأجانب . وكان يسلحهن بالقوة والاحترام الزائف والفلوس . وكان يتلقى أخبار خصومه أولاً بأول ، فالغانيات يشربن ويرقصن وينهار الرجال في أحضانهن . . وتتسرب منهم كل الأخبار والآراء . وهكذا يكون الأمير الذي أقام لنفسه جهاز مخابرات مستقلاً ، على علم بكل ما يجري في غرف النوم في فيينا . . وكان الأمير مترنيج عشيقاً لإحدى شقيقات نابليون العظيم . . فوضعت إصبعه على نبض نابليون ، ووضعت أذنه على فمه وهكذا أمسك الأمير النمساوي بيديه خيوط السياسة الفرنسية وهو في فيينا .

وكان الناس في زمانه يرونه عبقرياً ، ويرونه ساحراً يستخدم الجن في معرفة الأخبار . .

وفي التاريخ الحديث وجدنا الزوجات عيوناً على الرؤساء، ووجدنا السكرتيرين المدخل الطبيعي للخيانة والمصدر الأساسي لقلب نظام الحكم. وإسقاط الرؤساء والوزراء وأعضاء البرلمان . .

والدرس الثالث في المخابرات أنه كلما كان الرئيس متشدداً، كان مساعدوه أقل تشدداً. فتشدد الرئيس يرهق مساعديه. وفي نفس الوقت يمنع عنهم خيراً كثيراً. والخير يأتيهم عادة من تأدية الخدمات للآخرين، ويأتيهم من استخدام نفوذهم وقربهم من الرئيس المتشدد. ولذلك انقلب السكرتيرون على رؤسائهم . . فهم يشعرون بأنهم قريبون من الماء ولا يشربون، من الطعام ولا يأكلون، ومن السلطة ولا قوة لهم . . وهم يرون أن الرئيس المتشدد قد حرمهم من كل الذي ينعم به . . فكان الغضب منه والحقد عليه، هنا يسهل تجنيدهم ضده . . وتعويضهم عن حرمانهم بأموال أخرى، وسلطات إضافية!

وفي العصر الحديث رأينا سكرتير المستشار الألماني فيلي برانت جاسوساً سوفيتياً!

وفي التاريخ العربي نماذج كثيرة . .

ومن دروس المخابرات أيضاً: أنه يجب ألا نيأس من تجنيد أحد من الناس مهما كان . .

وتفسير ذلك أن جهاز المخابرات إذا أراد أن يجند أحداً، فهو يتقدم له بهذا العرض في ظروف خاصة أو ظروف معينة.. هذه الظروف سوف تتغير اليوم أو غداً.. ولذلك يجب التقدم إليه، بصورة أخرى.. مرة بعد ألف مرة حتى يلين الحديد ويذوب الجليد ويتبخر الخير، ويرسخ الشر، ويستقر على العداء والكراهية والتربص والانتقام من ولي نعمته!

جاءت سيدة إلى الأمير مترينج في ساعة مبكرة من الصباح تشكو أحد الوزراء فلما رآها قال لها: أوه.. أنت إذن عشيقته الجديدة.. أنت جميلة. فكيف هربت من أحضانه في هذه الساعة!

ولم تكن هذه الزوجة تعرف أن لزوجها عشيقة.. وبسرعة تحولت إلى «جاسوسة حسناء» لأذكى أمراء الجاسوسية في التاريخ!

وفي التاريخ الإسلامي أن الواقف على باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان يتقاضى أجراً على الخدمات التي يؤديها. وكان يطلب ذلك.. ويقال أن أحداً تقدم لعمر بن الخطاب يشكو ظلماً وقع عليه.. ولكن الواقف على باب عمر واسمه «يرفأ» كان عنيفاً..

فقيل للرجل: بدلاً من أن تقدم له ورقة عليها «المختلفات

السود، اعطه المتشابهات البيض». . أما المختلفات السود فهي الحروف والكلمات، أما المتشابهات البيض فهي الفلوس!

ولما أعطاه المتشابهات البيض، لقي عمر بن الخطاب، الذي رفع عنه الظلم!

فمهما كنت قوياً، فأنت ضعيف أحياناً. . ومهما كنت مخلصاً، فالخيانة قريبة منك. . على بابك أو في فراشك. . ليس هذا رأيي وإنما رأي أصحاب التجربة في شراء وبيع أقرب الناس إليك. . وهم في نفس الوقت أبعدهم عنك!

أقول لك
من أنت . . وأنا !

يعجبني من الناس، ذلك النوع الذي يجد وسيلة . . طريقاً . . حلاً . . إذا اعترضته الصخور لف حولها، إذا استوقفه الجدار تسلقه، إذا اعترضته الرمال ركب جملاً، إذا اعترضه الماء استقل زورقاً . . وهذا بالضبط الذي لا أعمله. فإذا وجدت الماء رحت أحصي الأمواج، وأعد القواقع . . وإذا رأيت الصحراء جعلت أتساءل: هل يا ترى عدد النجوم في السماء أكثر أو عدد الرمال على الأرض . . ولا أصل إلى حل. بل لا أحاول. وإنما أضع أمامي قضية واحدة هكذا: إذا كنت أنا القاضي في محكمة الفلسفة وكانت القضية هي كم عدد ذرات الرمل، وكم عدد موجات البحر، وكم عدد شعرات رأس مارلين مونرو، وهل هي أكثر من ذيل الحمار الذي ينتظر المهدي المنتظر فوق جبال الدروز، فإنني أنتهي إلى عجزي عن المعرفة! . ثم أعلن رفع الجلسة إلى يوم القيامة. أما القرار فهو: إنني لست مؤهلاً للحكم في هذه القضية. ولذلك يجب أن «أرد نفسي» عن النظر فيها . . وأي أحد!

ولذلك فإذا كان لا بد أن أختار لنفسي مذهباً فلسفياً أو

تفسيراً لكل ما كتبت فأنا أبادر فأقول: إنني وجوديٌ رومانسيٌ. . وأنا وجوديٌ أي إنني مشغول بالفرد وقيمة الفرد. وحرية الفرد وأزمة الإنسان في مواجهة القوى البشرية والمذاهب السياسية والمدارس الأدبية والعقائد الدينية. . وأنا أميل إلى تضخيم دور الفرد. حتى ليبدو المجتمع قزماً. . ولكن المجتمع ليس إلا مجموعة من الأفراد. . فالمجتمع أيضاً ضخم. ولكن ضخامة المجتمع تخنقني. . إنه الحوت وأنا يونس. . وأنا أخاف الحوت، ولكن لا بد أن أعيش في داخله. . أقاومه وألجأ إليه. أدق جدرانه وأنا في أحشائه. . أضع لساني بين أنيابه وأصرخ. . وكما أن الحوت يعيش في الماء ويموت فيه وبه، فهو يطفو على الماء ويقاوم الماء. . وبلا ماء لا حياة ولا حركة. . وكذلك أنا بغير الحوت لا أمن ولا خوف. . فالذي أخاف منه هو الذي أوى إليه، والذي أشكو من ظلماته وظلمه، هو الذي ألوذ به وأطلب عدالته. .

وأنا رومانسي لأنني شديد الحساسية، ولأنني أضع قلبي فوق عقلي. . بل أن عقلي يدق في قلبي. . ولا يزال يدق حتى يصبح عقلي غير قادر على الرؤية والرأي. . وأنا أغمض عيني عن الواقع، وأحلم بالقديم. . أو بالخرافي الخيالي. . فأنا لا أحب هذا الواقع، وأحب واقعي أنا. .

وليس عندي برنامج لإصلاح الإنسان، والكون. . فهذا

طموح جنوني. فلا أنا نبي ولا أنا صاحب رسالة. وأنا أخاف أصحاب الرسالات. لأنهم خطرون. ومن مظاهر خطورتهم أنهم يجمعون الناس حولهم بالقوة. والقوة تغريهم. والقوة تحول الناس إلى وحوش جماعية.. إلى حيتان «تجتر» ما في أحشائها.. فتسحق الناس.. وتحطم الفرد.. وتهلك حريته..

وإذا نظرت حولي إلى كل المفكرين العرب، وأكثرهم من الأدباء والشعراء، وأصغرهم من النقاد والصحفيين في الخمسين عاماً الماضية. فماذا أجد؟ أكثرهم رومانسيون.. شعراء.. خطباء.. فمؤلفو الروايات اختفوا وراء ما فيها من رمزية.. وراحوا يتوارون وراء أبطالها ويغمزون ويلمزون ويشربون ويحششون ويعربدون. فإن سألتهم: ما هذا؟ قالوا: إنهم أبطالنا ولهم حياتهم المستقلة فاسألوهم إن كانوا ينطقون..

أي أن هذه آراء المؤلفين، إلا قليلاً.. فهم الذين قالوا.. ولكنهم لم يوضحوا.. ولا إصلاح بغير وضوح. أي بغير برنامج واضح مدروس مباشر..

أما الشعراء فهم الذين قال فيهم شوقي:

فاتقوا الله في قلوب العذارى
فالعذارى قلوبهن هواء

جاذبتني ثوبي العصى وقالت
أنتم الناس أيها الشعراء.

فالشعراء هم الناس. هم الذين يصنعون الجمال ويتغنون به. ويصدقون أن هذه هي القضية وأن هذا هو الحل.. وأن الوجود خارج الزمان وبعيداً عن المكان، وركوب الأشجار، وسكنى السحاب، والتصنت على السماء، هو الفن ورسالة الفن..

وأرى أن هذا هو أقصى ما يستطيعه الأديب والفنان.. أما السياسي، فله أسلوب آخر. ومن بين أساليبه استخدام الشعراء والأدباء، ومنحهم القوة والمال. ليكونوا رصاصة في بندقيته، ومداداً لقلمه، وزينة الحياة الدنيا، وحياة أهل الفن هي القلب.. أيّ التي تعلو على الأرض وعلى المحيط وعلى الحوت.. ثم لا يكون هناك هدف آخر..

فقط أن نطير وأن نحلق، وأن نقاوم جاذبية الأرض، وأن نتساقط صرعى جاذبية الإنسان..

إن كان هذا شعراً، فأصدق الناس الشعراء، إن كان هذا هروباً من الواقع، فإن الواقع يستحق أن تهرب منه.. إن كان هذا انشغالاً بالذات، واستغراقاً فيها،.. ففي ذلك حياة الفن، وهدف النقد، وأمل الفلسفة.. من أجل ذلك

نموت، وفي سبيله نعيش، ومن أجله نستحق أن يلعننا رجال السياسة والمال والأعمال، أي كل الحيوانات التي تشرب الدم، وتبلع الذهب، وتعبد المقاعد التي تجلس عليها!

بسم الله الرحمن الرحيم

طبيعي أن يبدأ الناس الطيبون في كل دين، رسائلهم بالتوجه إلى الله هكذا: شكراً لك يا رب أن أعطيتني العلم والصحة..

اليهود كانوا يفعلون ذلك، والمسيحيون أيضاً..

واليهود أسبق في التاريخ.. ومن بعدهم المسيحيون وأخيراً وآخراً المسلمون. ولكن ليس من الضروري أن يعرف اليهود من أمر الدين والدنيا، ما لا يعرفه الذين من بعدهم.. كأن الله فتح عليهم السماء، وسدها في وجه بقية عباده الصالحين. ولكن الديانة اليهودية ترى أن العلم والحكمة وكل شيء قد جاء في كتبهم: التوراة والتلمود الذي هو نصائح وشروح رجال الدين. ويرى اليهود أن التلمود أهم من التوراة. والذي يؤمن بالتلمود مؤمن، والذي يؤمن بالتوراة فقط كافر. وفي الديانة اليهودية أن لو دار حوار بين الله وبين أحد الحاخامات، فالذي يقضي به الحاخام هو الصواب. والله خاطيء ـ سبحانه وتعالى!

فالديانة اليهودية دين خاص بهم وحدهم. ولذلك فالديانة اليهودية لا تدعو أحداً إلى الإيمان بها على خلاف المسيحية

والإسلام. وإنما يتوارثها اليهود فقط. ومن بين مشاكل إسرائيل اليوم: من هو اليهودي؟ هل هو الذي أمه يهودية وأبوه مسلم؟ أو هو الذي أبوه يهودي وأمه مسيحية؟ أو هو الذي أبوه وأمه يهوديان، ثم اضطرتهما ظروف الهجرة فاعتنقا المسيحية أو الإسلام، وعندما هربا إلى إسرائيل، استردا دينهما! وهل الابن غير الشرعي من أبوين يهودين، يهودي، إلى أخر المشاكل التي تجيء من أن ديناً أخر قد تسلل إلى دمه.. فالديانة اليهودية بكل أسسها ديانة عائلية وراثية دموية..

والغرور اليهودي جعلهم دائماً يعتقدون أن كل ما ظهر في الأديان والأدب والفكر، قد بدأ عند اليهود، في التوراة أو التلمود وغيرهما من الكتب الرئيسية عندهم.

وفي إحدى المسرحيات اليهودية المضحكة أن رجلاً يهودياً هاجر من بلد إلى عشرات البلاد.. وتقلب بين المسلمين وبين المسيحيين والهندوكيين والكونفوشيسيين والسيخ والزرادشتين، ثم ارتد إلى الإسلام والمسيحية وقد نفذ كل تعاليم اليهودية في الإفساد والتخريب والتشويه والتضليل في كل هذه الأديان.. ووصل إلى إسرائيل. فأدخلوه السجن. وحاكموه وأدانوه. وتساءل الرجل في قفص الإتهام: ولكني نفذت التعاليم اليهودية في كل شيء، فقد اعتنقت كل الأديان وخرجت منها وأشعلت النار بين كل

الناس . . ألا ترون أنني يهودي مخلص؟

فقال له القاضي الخبيث : لو كنت مخلصاً حقاً لأفسدت الديانة اليهودية أيضاً . . فالمخلص مخلص دائماً ، والمفسد دائماً !

فقال الرجل : صدقت يا سيدي القاضي ، فمن أجل ذلك جئت إلى إسرائيل !

وهنا قال القاضي : ما دمت قد اعترفت على نفسك بذلك فقد حكمنا عليك بالسجن مدى الحياة !

ومن أغرب ما قرأت في كتاب بعنوان «لكي تكون يهودياً طيباً» . لروبرت ولفسون أن الإسلام قد أخذ الكثير من الديانة اليهودية .

مثلاً مثلاً : أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما كان يبعث برسائله إلى الحكام شرقاً وغرباً كان يستهلها بقوله : باسم الله . . هذا الاستهلال مأخوذ من الديانة اليهودية . شيء عجيب . كأن احتكار يهودي ، فلا يحق لواحد من أي دين آخر أن يناديه أو يتوجه إليه . . وكأن اليهود وحدهم هم الذين لهم حق الإيمان به والدعوة له ، والتوجه إليه في كل ما يكتبون .

ولكن «بسم الله» هذه يمكن الرجوع إلى تاريخها الجاهلي والإسلامي بسهولة .

فقد كان العرب في الجاهلية يبدأون رسائلهم بهذه العبارة: باسمك اللهم. .

ونحن نعرف من هو «الله» الجاهلي وما اسم الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها. .

وفي رسائل الرسول عليه السلام، في أول دعوته إلى الإسلام كان يستهل رسائله بقوله: باسمك اللهم. .

إلى أن نزلت آيات من سورة «هود». . يقول فيها الله تعالى: **﴿باسم الله مرساها ومجراها﴾**.

فجعل الرسول عليه السلام استهلال رسائله: باسم الله. .

ونزلت آية في سورة الإسراء تقول: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾**

فجعل الرسول استهلال رسائله: باسم الله الرحمن. .

إلى أن نزلت آية في سورة النمل تقول: **﴿إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيم. .﴾**

فجعل الرسول عليه السلام بداية رسائله: بسم الله الرحمن الرحيم. .

ثم أصبحت هذه الفاتحة لكل سور القرآن فيما عدا سورة «التوبة». .

ولكن يجب أن نعترف بأن الذي دخل في تفسير القرآن والأحاديث النبوية كثير من الديانة اليهودية، وهو ما يسمى «بالإسرائيليات».

وقد أفسد اليهود السيرة الإسلامية، ووسعوا الشقة بين المذاهب، وبين المسلمين في كل العصور. ولم يكن هذا هو أثر اليهودية على الإسلام وإنما هو أثر اليهود على المسلمين.. وكل الخرافات والخزعبلات التي امتلأت بها المذاهب الإسلامية المتطرفة، يمكن إرجاعها إلى أصحاب الفضل الأوائل من اليهود..

وفي التعاليم اليهودية دعوة صريحة إلى بني إسرائيل أن يدخلوا كل دين ليفسدوه ويفرقوا بين أهله، أملاً في إضعاف الدين والناس، حتى لا يتكاثروا عليهم في كل مكان ـ ولا يزالون يفعلون!

لحكمةٍ أضاءوا لنا!

نحن لا نعرف ما هي المقدمات التي تأتي بإنسان موهوب. ليس من الضروري أن يكون أبواه كذلك. ولا من الضروري أن تكون بيئته ثقافية فنية.. ولا من الضروري أن يتنبه أحد إلى وجوده وهو صغير، فيرعاه حتى يكون نجماً في زمانه.

فالموهبة ليست وراثية..

ولا هي معادلة كيماوية..

ولا هي الحرية في التربية ووفرة الكتب والطعام والشراب والمتعة بين يدي أي إنسان.

فنحن لا نعرف ما الذي كان يعمله آباء أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وهوميروس وشيكسبير وجيته وهيجو وغيرهم.. ولا نعرف من أين جاءت عبقرية دافنشي، وأينشتين وبتهوفن وماركوني..

ولكننا نعرف شيئاً واحداً: كما أن في السماء نجوماً تتألق أبداً، فعلى الأرض مصابيح لا تنطفىء: هم الأنبياء والرسل والمصلحون وعباقرة الأدب والفن والفلسفة والعلم.

قد يتكاثرون جداً في عصر، وينقرضون في عصر آخر. . لا قاعدة فعصر هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ليس له نظير في الحضارة الإنسانية. لماذا؟ لا سبب!

وفي كل الحضارات عصور مشرقة بأبنائها باهرة بعباقرتها، وعصور أخرى مثل الخريف والشيخوخة، قد خمدت فيها النار، وانطفأت الأنوار. .

ولكن كما تجيء السحب، فتحجب عنا السماء وشمسها وقمرها ونجومها، فكذلك تجيء عصور على الإنسانية أشد سواداً من السحاب. ويكون هذا السواد سقفاً قد سقط فوق العقل الإنساني، وباعد بينه وبين إشراقات السماء، ومصادر النور والإبداع. .

وقد حاولت الإنسانية أن تجد سبيلاً إلى البحث عن الموهوب. . أي الذهاب إليه، حتى توفر عليه مشقة الطريق، وتنجيه من عقبات الإنسان. . .

وحاولت أن تتيح الفرص المتساوية لكل الناس، ويكون ذلك نوعاً من العدل أمام الجميع. .

ولكن الموهبة تجيء من ناحية أخرى. . فليس من الضروري أن يكون الموهوب ناجحاً في كل عمل وعلم. . وليس من الضروري أن يكون ألمع الناس ولا حتى

أذكاهم . . فقدراتهم كنوز مخبوءة. لا أحد يعرف متى تظهر. . كأنها مناجم الذهب في الأرض، نمشي فوقها دون أن ندري . . كأنها أبار البترول، أنهار وبحيرات تجري بعيداً في جوف الأرض. . كأنها البراكين تحتشد عاماً بعد عام، وفجأة تنفجر وتلفت بدخانها ونارها عيونَ السماء. .

وقد تتوهج الموهبة في وقت قصير، وتنطفىء بسرعة، كما ظهرت بسرعة. فقد عرفنا شعراء ماتوا في الثلاثين أو بعدها بقليل مثل رامبو الفرنسي ونوفالس الألماني وشيلي الإنجليزي وليوباردي الإيطالي والشابي التونسي. . وعباقرة ماتوا في السبعين والثمانين . .

ولكن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الموهبة، كان ذلك لحكمة . فهو لم يخلقها عبثاً . . وإنما لتبقى للناس وتضيء الناس . . تماماً كما أرسل الأنبياء والرسل .

ولذلك فلا تختفي موهبة . .

وإذا ظهرت لا يستطيع أحد أن يتجاهلها . . قد يظلمها، قد يقسو عليها، قد يحاربها، ولكنها سوف تبقى دليلاً على حكمة الله، وحماقة الإنسان . .

وقد يلقى الموهوب ما يشجعه من الشهرة والمجد، وقد لا يجد ذلك . . فالموهبة سلعة تحتاج إلى من يعرضها وينادي عليها ويبيعها ويلم الناس حولها . . بعض الموهوبين أساتذة،

في البيع والشراء، وبعضهم يفضل أن يبقى في مكانه، ويرى إهداراً لموهبته أن يدل الناس عليه.. على نفسه.. وفي التاريخ ألوف أخذوا أكثر مما يستحقون من مال الناس وتقديرهم، وشغلوا مساحات أوسع في الكتب.. لأنهم كانوا أعلى صوتاً وأطول ذراعاً، وأكثر إلحاحاً على عيون وأذان الناس، وعبئاً على ضمائرهم أيضاً..

ولا بد أن يكون الإنسان يائساً إذا ردد قول الشاعر:

ليس الخمول بعارٍ
على امرىء ذي كمال
قليلةٌ القدر تخفى
وتلك خير الليالي!

بل عار علينا أن نفعل ذلك، وعار على صاحب الموهبة ألا يكون مقتنعاً بنفسه، ثم يدعونا إلى الإيمان به!

يا تين يا توت يا رمان . . !

كان ذلك سنة ١٩٥٨ في بغداد . . والقلب شاطىء تتضارب عليه الامواج . . والقلب صخر منطقي تهزه الريح . . والليل زحام من الحرارة والدخان والرطوبة . . فلا نعرف إن كان الهواء مضيئاً ، أو هو الضوء دخان السمك المسجوف على ضفاف الدجلة . . وهذه الظلال السوداء فتيات : العباءة في لون الشعر في لون العين في لون الحرمان ، وهذه العيون الواسعة الجميلة مستعارة من النجوم . . من الأفكار . وهذه الفساتين المشقوقة على الساق . . هذا الشق وعد عابر بأمل ضائع في ليلة من ألف ليلة وليلة .

كنا ، لا أعرف كم كنا وأين . . شاعرنا الرومانسي صالح جودت يتغنى ونحن نهتز . . وحولنا بنات الرافدين : متعة للعين أن ترى وللنفس أن تتمنى ، وللأذن أن تسمع . . فإذا قلت قصيدة ، ردت كل واحدة بقصيدة . وتحار العين والأذن أيهما القصيدة التي تسمع أو التي ترى . . أو هي القصيدة التي تديرها أنت سراً بين عقلك وقلبك . . بين الأدب

الواجب في حضور الفتيات الجميلات والأدب الذي لا ضرورة له . .

ونهضنا معاً . وتوارت الفتيات : جزءاً من الليل في بقية الليل . . وكان الطريق طويلاً إلى بيت الشاعر حافظ جميل ، الذي توفى أخيراً عن ٧٧ عاماً . . وهو آخر الرومانسيين في العراق . .

وفي كل مرة يجيء اسم حافظ جميل لا بد أن نجد ما يضحكنا . فالإعجاب به ورواية النوادر عنه وعن شعره ، لا ينفصلان .

وكان رفيقي د . يوسف عز الدين رئيس المجمع العراقي ، وهو عالم جليل محب للمرح يضحك كأنه طفل ، ويجد كأنه سيبويه ، ويحصي خطواته كأنه الخليل بن أحمد ، ويتمايل كأنه البحتري ، ويتوقف فجأة كأنه المتنبي فاته أن يشتم أحداً . .

وكنت لم أر حافظ جميل . . استقبلنا متوسط القامة . . والسيجارة في يده . وصوته هادىء . ومثل كل العراقيين يتحدث من حلقه ، ويمتص الهواء داخلاً وخارجاً . . كأنه يلف العبارات بأبهة عربية ، وفخامة عراقية . . وكان البيت مضيئاً . وبسرعة ودون أن يعرفنا امتدت الأيدي إلى الطعام والفستق . . وكأن الحاضرين جميعاً قد جاءوا يسمعونه شعراً

وكأنه هذه هي المناسبة. نحن نقول وهو يرد. أدهشني ذلك بعض الوقت. وبعد لحظات وجدتني إلى جوار حافظ أناديه باسمه ويناديني.. وأسمعه شعراً قديماً لي، وشعراً لأبي.. ووجدت أن الشعر الذي ألقيه يشبه طفلاً صغيراً ضل طريقه إلى مدرسة الحضانة فاقتحم أبواب الجامعة.. وتواريت بشعري، وأقبلت على شعر الآخرين..

حتى قالت سيدة: قل يا حافظ ما قلته في التوت والرمان والعنب..

وضحك الحاضرون. وعرفت أن هذا هو الذي يضحكهم دائماً..

وهي قصيدة نظمها حافظ جميل عندما كان طالباً بالجامعة الأمريكية، في فتاة اسمها «تين» وانتشرت القصيدة، كما تنتشر النكتة فنسبها كثيرون إلى أنفسهم، وقيل أنها لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان. وقيل أنها من نظم آخرين..

وهي قصيدة مليئة بالرمز ولمس مفاتن جسم المرأة بالكلمات والإشارات.. بل ليس بها رمز وإنما كلها لمس عميق..

قال حافظ جميل سعيداً، وكأنه يتوقع ذلك:

يا تين يا توت يا رمان يا عنبُ
يا خير ما أجنت الأغصان والكتب

يا مشتهى كل نفس مسها السغب
يا برء كل فؤاد شفه الوصب
يا تين يا توت يا رمان يا عنب

* * *

يا تين يا ليت سرح التين يجمعنا
يا توت يا ليت ظل التوت مضجعنا
وأنت ليتك يا رمان ترضعنا
والكرم يا تين بنت الكرم تصرعنا
يا تين يا توت يا رمان يا عنب

* * *

يا تين زدني على الأكدار أكدارا
ولا تزدني تعلات وأعذارا
هبني هزاراً وهب خديك نوارا
فهل يضيرك طير شم أزهارا
يا تين يا توت يا رمان يا عنب

* * *

هتفت بالتين فاهتزت له طربا
وقلت للتوت: كن أقراطها الذهبا
واحذر إذا انتفض الرمان وانتصبا
أن يأخذ الكرم من حباته الحببا
يا تين يا توت يا رمان يا عنب

ناداك بالتين يا «ليلى» مناديك
والتين بعض جنى الأطياب من فيك
لو كان يجدي الفدا في عطف أهليك
لرحت بالروح أفديهم وأفديك
يا تين يا توت يا رمان يا عنب

* * *

كتمت حبك عن أهلي ولو عرفوا
شددت رحلي إلى بغداد لا أقف
هذي دموعي على الخدين تنذرف
يا منية القلب هل وصل وانصرف
يا تين يا توت يا رمان يا عنب!

هذه القصيدة التي كانت أسطورة بيروت، قد نظمها وهو في العشرين من عمره.

وكان شعر حافظ جميل تكذيباً لملامحه، فهو ليس رقيق الوجه ولكنه هامس الصوت، محشرج الأنفاس، كأنه ما يزال ذلك الطالب الغريب في بيروت..

وقد باعدت الأيام بيننا.. فلم أعرف له إلا ديواناً واحداً هو «نبض الوجدان».. وهو خليط من غراميات أبي نواس، وفلسفة ابن الرومي، وتشاؤم المتنبي وأبهة شوقي..

عاش غريباً، ومات منسياً.. وكذلك كل الذين ولدوا سابقين أو متأخرين عن زمانهم!

هذا وقت ألف ليلة!

عندما جاء الروائي البريطاني سومرست هوم إلى القاهرة في الخمسينات ذهبت إليه. كان مريضاً مشلولاً. وكانت سكرتيرته الحسناء هي التي تتولى تكرار كل سؤال بصوت مرتفع قريباً من أذنه ـ فقد كان مسدود الأذنين مرتجف الشفتين واليدين، متألق العينين. سألته: إن كان قد قرأ للعقاد وطه حسين؟!

واستعادت هذه الإسماء ومعناها. فاعدت ذلك. وكانت الدهشة وعدم الفهم إجابة عن السؤال. فهو لم يقرأ ولم يسمع عن أحد من هؤلاء. قال: قرأت ألف ليلة وليلة فقط.

ولما نشرت ذلك غضب الأستاذ العقاد وهاجمني قائلاً: إنني لم أشأ أن أعرف رأيه، وإنما أردت أن أسخر منه والأخرين!

وعندما سألت صديقي الكاتب السويسري الكبير فريدريش ديرنمات إن كان قد قرأ أدباً عربياً حديثاً أو قديماً أجاب بأنه لم يعرف سوى «ألف ليلة».

ولا ألوم أحداً. فأدبنا العربي الحديث ليس منتشراً في أية

لغة أوروبية. ومن الممكن أن يعيش المثقف الأوروبي ويموت، دون أن يطلع عليه، دون أن يشعر بأنه قد خسر شيئاً. ففي اللغات الأوروبية ما هو أروع وأجمل وأعمق.. ربما.

أما «ألف ليلة وليلة» فهي ما تزال متعة. وقد قرأت أكثر من نصفها في الشهور الأخيرة. وهي راحة للعقل من قيود العقل - من المنطق والإتساق الفكري ووحدة الزمان والمكان.. فالزمان في ألف ليلة وليلة يتغير في كل الإتجاهات في الماضي والمستقبل. والمكان.. لا مكان: فهناك وسائل للطيران بين الأرض والسماء وتحت الماء بسرعة هائلة.. طيور جارحة وبساط الريح وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين.. والحيوانات تتحول بعضها إلى بعض.. وكذلك النباتات والطيور.. والناس غارقون في اللذة وفي الخوف..

وشهريار الملك هو أكبر طفل في تاريخ الأدب العالمي، فلا تكاد شهرزاد تعلن أنها سوف تروي له قصة حتى ينسى الحكم والشعب، بل أننا لا نعرف له وظيفة أو قضية أو حتى وطناً أو أباً أو أماً.. ويكفي أن تعلن شهرزاد عن قصة حتى يكون طفلاً صغيراً بين يديها..

فالقصة هي أعظم متعة.. وهي الحل لكل مشاكله النفسية..

بل أنه لا يتحدث مطلقاً. ففي كل «ألف ليلة» لا يوجد حوار بين الملك شهريار والملكة شهرزاد.. وإنما هي «مونولوج» طويل، هي التي تتكلم دائماً، وهو الذي يسمع.. بل أنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يصحو.. ولا يتنفس.. فقط هي التي تقول «ومفروض» أنه هناك.. يستمع لدرجة أنه لا يستطيع أن يقاطعها بالنفس أو الحركة..

ولو رفع الملك سيفه على مجرم أو لص ـ وهو لم يفعل إلا مرة واحدة عندما قتل الوتجي الذي استولى على زوجته في غيابه ـ وجاء اللص وقال له: «مولاي عندي لك قصة».

لألقى الملك السيف وركع عند قدمي اللص وقال له: بل أنت مولاي.. قل حكايتك وإذا قاطعتك فخذ هذا السيف واقتلني!

ومن أظرف وأعجب ما في ألف ليلة وليلة تلك الليلة الأخيرة.. أي الليلة الأولى بعد الألف. ففي هذه الليلة روت شهرزاد كل حكاياتها التي بلغت مائة وعشرين قصة واستغرقت ثلاثة وثلاثين شهراً. في تلك الليلة طلبت شهرزاد من الملك أن يفعل بها ما يشاء. فقد روت له كل ما عندها وحاولت أن تنقذ بنات جنسها من انتقامه العنيف.. ثم قدمت له ثلاثة من الأولاد.. هؤلاء أولاده!

والغريب أن الملك لم يلاحظ مرة واحدة أنها حامل أو أنها

مريضة . . أو أنها ولدت . . أو أن طفلاً بكى . . أو أن شهرزاد قد اعتذرت بسبب الإرهاق أو الرضاعة أو الوحمة عن أداء واجبها الروائي . . وأغلب الظن أن الملك لم يقرب من شهرزاد . . ومع ذلك لم يندهش أنها أنجبت له ثلاثة أولاد . . ولا بد أنه ظن أن هؤلاء الأولاد من اختراع شهرزاد . . وأنه شخصياً ليس إلا بطلاً أسطورياً وأن أولاده كذلك ! !

إن ألف ليلة وليلة متعة عقلية أدبية فنية . وهي مثل مسرحيات «العبث» ـ أي مسرحيات اللامنطق واللامعنى . . ولكنها أجمل وأبدع . .

والذين كتبوا عن سكان الكواكب الأخرى الذين هبطوا إلى هذه الأرض ، يستمدون حجتهم مما جاء في «ألف ليلة» و «الألياذة» و «الأوديسة» عند الإغريق و «السانتا جراها» الهندية . . وأساطير «الأنكاسي» الأمريكية . . ففيها جميعاً كائنات لا نعرفها حتى الآن . . وفيها تتحول الأحجار إلى أشجار والأشجار إلى أطيار والأطيار إلى تجار وأمراء وملوك . .

إن كان قد فاتك أن تقرأ «ألف ليلة» فالوقت المناسب هو الآن ـ فنحن في عصر أصبحت فيه الخرافة حقيقة ، والحقيقة خرافة . . مع فارق واحد : انعدم الأطفال الأطهار البسطاء

الذين ترضعهم القصة، وتهدهدهم الرحلة، وينســون أنهـم ملوك مثل شهريار. . ولا يهم طعام أو شراب. . أو أن يبحثوا من أين وكيف تجيء أطفالهم؟!

الكبار ومشاكلهم الصغيرة!

المثل الشعبي يقول: باب النجار مخلوع!

أي أن الرجل الذي يصلح أبواب الآخرين، ينسى أن يصلح بابه..

ويكون معنى ذلك أن الذي يطالب الآخرين بأن يصلحوا أبوابهم، يجب أن يلتفت إلى بابه أولاً..

أو يكون المعنى أنه حتى النجار من الممكن أن تجد لديه باباً مخلوعاً أو شباكاً مكسوراً.. فلا أحد بلا عيب!

ومعناه أيضاً أن الإنسان يفتح عينه على غيره، أكثر مما يفتحها على نفسه.. ولذلك فالطبيب يشكو من التعب، وهو الذي يحاول أن يريح الآخرين، وتجد الناجح في عمله، فاشل في بيته..

والشمس التي هي مصدر الحياة، ليست بها حياة.

ولكن هناك معنى أخر وهو أن العباقرة الذين يشغلون أنفسهم بالقضايا الكبرى، يقفون عاجزين أمام المشاكل الصغرى.

ويقال أن العبقري الإنجليزي نيوتن، وهو الذي اكتشف

قوانين الجاذبية وغيرها من النظريات التي زلزلت الفكر الإنساني، كان يمكث وقتاً طويلاً في معمله. وكان كلبه يدق الباب برجليه يريد أن يدخل. . فبدلاً من أن يترك له نيوتن الباب مفتوحاً، اهتدى إلى عمل فتحة في الحائط لكي يخرج منها الكلب ويدخل دون أن يشغله عن عمله. .

ثم ظهرت عنده مشكلة أخرى. فقد اشترى كلباً صغيراً. وأمضى ليلة يفكر في مشكلة هذا الكلب الجديد. فما كان منه إلا أن فتح في الحائط فتحة صغيرة للكلب الصغير. ونسى أن الكلب الصغير من الممكن أن يدخل من الفتحة الكبيرة. .

وفي ذلك الوقت كان مشغولاً بالعلاقة التي تربط القمر بالأرض والأرض بالشمس، والمجموعة الشمسية بالمجرة، والمجرات كلها بمركز الكون. . بالله. .

* * *

والشاعر الأمريكي أمرسون كانت لديه مزرعة لتربية الأبقار. وكان يحب أن يراها ويطعمها. . وفي يوم رأى أن يخرج من الحظيرة أحد العجول. فراح يدفعه أمامه. . ولم يفلح. حاول أن يشده بالحبال، ولكن العجل تشبث بالأرض. حاول أن يغريه بالطعام يضعه أمام الباب. وأخيراً استدعى واحداً من ابنائه. هذا يشده من الأمام، وذاك يدفعه من الخلف. ولم يخرج العجل. فذهب أمرسون إلى مكتبته ونظر إلى الكتب بالألوف حوله وقال: كل هذه الكتب لم

تساعدني على أن أقنع عجلاً بالخروج من الحظيرة!

وكتب في ورقة أمامه: نحن مشغولون بحل العقد بين الناس، وبين الناس والحيوانات.. ولكن لم يدلنا أحد كيف نجعل عجلاً صغيراً يقطع بضعة أمتار، إذا كان لا يريد ذلك!

ثم استدعى الخادمة.

ودخلت الخادمة. ووضعت إصبعها في فم العجل الصغير الذي راح يرضعها.. ثم خرجت من الحظيرة!

وانحنى الكاتب أمرسون أمام الخادمة قائلاً: سيدتي أنت أحكم وأعظم!

ومرة أخرى في الحفلة التي أقامتها الأسرة المالكة البريطانية للأميرة ديانا وطفلها، جاءت الملكة وكل امراء ونبلاء العائلات الملكية في أوروبا.. لتتفرج على الطفل الذي سوف يكون ملكاً لبريطانيا.. وملأوا عيونهم من الطفل. وفجأة تعالى الهمس. وشعرت الملكة وزوجها وولي العهد وأخوته بالخجل وراحوا يدورون حول الأميرة ديانا.. يتسترون عليها. فما الذي فعلته الأميرة التي تدربت على تربية الصغار، عندما كانت مدرسة في إحدى رياض الأطفال في لندن؟

لقد بكى الطفل ولم تجد الأميرة ديانا «بزازة» معها، فلم تستطع أن تحمل حقيبتها وطفلها معاً.. فوضعت أصبعها في

فمه . . وراح الطفل يرضع أصبعها . وسكت .

وهو من ناحية البروتوكول الملكي ، سلوك لا يليق . . فقد كان في وسعها أن تنادي المربية . . أو تنسحب نهائياً من الحفلة حتى يسكت الطفل . ولكنها اهتدت إلى الحل العملي الذي تفعله كل الأمهات ، وكل مربيات العجول والأغنام . .

وكان إصبع الأميرة بين شفتي طفلها ، الصورة الأولى في الصحف ، والخبر الأول في التلفزيون . .

أما كل الأمهات في العالم فقد رأين في ذلك سلوكاً طبيعياً . . وزاد حبهن للأميرة الإنسانة البسيطة . . الأم أولاً وأخيراً !

ولو كان الأديب أمرسون بين المدعوين لأتى بجميع كتبه وأحرقها عند قدميها ، فليس فيها سطر واحد عن كيف يمكن إسكات طفل ، واستدراج عجل !

* * *

وعندما كان عبقري الفيزياء أينشتين مدرساً بجامعة برن بسويسرا ، سكنت إلى جواره سيدة عجوز ثقيلة السمع وكانت تدق بابه من حين إلى أخر وتسأله : كم الساعة؟

وكان اينشتين يقول : لا ساعة عندي !

ويقرر أن يشتري ساعة ! . .

وتعود العجوز تسأله ، و يرد عليها بنفس الهدوء ، كأنه نسي أنها قد سألته قبل ذلك . .

ثم كتب أينشتين في مذكراته : أنا الذي وضعت ساعة على كل مليمتر في هذا الكون ، عندما جمعت بين الزمان والمكان ، نسيت أن أضع في جيبي ساعة !

أما أغرب اكتشاف لأينشتين في ذلك الوقت ، فهو أن وجد كنيسة إلى جوار بيته . . وأن لهذه الكنيسة ساعة وأن الساعة تدق بانتظام ، ولكنه لم يتنبه إلى ذلك إلا بعد ثلاث سنوات من الإقامة في هذا البيت !

كل العلماء: شعراء!

أنا دخلت الفلسفة من باب الشعر. .

تسللت إلى العقل من كوة ضيقة في القلب. .

تسلقت أشعة القمر إلى مصدر النور. . إلى الشمس. . بهرني الغموض السحري، فبحثت عن الحقيقة. . فما الذي وجدت؟

إن الشعر تعبير جميل. . والتعبير فن. والجمال نسبي. . والتعبير يختلف من شاعر إلى شاعر. والجمال من شاعر إلى شاعر. . من زمن إلى زمن ومن بيئة إلى بيئة. .

والشاعر في تعبيره يستخدم الألفاظ. . وهذه الألفاظ لم يبتدعها الإنسان ليعبر عن الجمال والجلال والحقيقة والصدق. . وإنما ليعبر عن احتياجاته اليومية. . وتطورت احتياجات الإنسان. . وتغيرت وتبدلت. . وبدلاً من أن يكون مشغولاً بالتعبير عن الرغبات الغريزية، أصبح أيضاً مشغولاً عن الغريزة ومعنى الطعام ومعنى الدفاع والقتال في سبيل ذلك. . ثم التسامي عن الغريزة والبحث عن معنى الحياة وما بعد الحياة ـ مستخدماً كل الألفاظ ذات الدلالة المادية البحتة. .

وفي استطاعتك أن تستعرض أي لفظ. . أي فعل. . لتجد أننا نقلناه من المعنى المادي إلى المعنى المجرد. . مثلاً كلمة: رأى. . يرى. . وتراءى. . ورؤية ورؤيا. . والرأي. . والفعل: نظر. . ونظرية. .

وكل الألفاظ مادية الأصل. . ثم أصبحت معنوية الهدف. . ولذلك فالعلوم الحديثة تستغني عن الألفاظ مستخدمة الأرقام. . أو الرموز. وبدلاً من الجمل استخدمت المعادلات. . وهكذا هرباً من المدلول المادي، إلى المدلول الرمزي أو الرياضي. . أو المعنوي!

فهل يوجد تعبير دقيق؟ لا يوجد تعبير واحد دقيق، لأن الألفاظ التي نستخدمها ليست كذلك. .

والشاعر لا يدعي أنه دقيق، ولا يحب. فالشاعر الذي يتحدث عن الوجدان، ، ليس دقيقاً. لأنه ما هو الوجدان؟ ما هو الحب؟ ما هو العذاب؟ ما هو الشوق والحنين والتباريح والويلات. . والغنى والهناء. . وغير ذلك من ألوف الألفاظ التي يختارها الشاعر ويضع لها إيقاعاً موسيقياً وإطارات بلاغية فاتنة. .

فليس في الشعر مثل هذه المعادلة: ٢ + ٢ = ٤ . .

ولا مثل هذه المعادلة التي انفجرت طبقاً لها القنبلة الذرية: الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء. . أو الخط

المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين . . إلخ .

وحتى هذه المعادلات الرياضية ليست دقيقة أيضاً . فهناك نظريات تقول أنه ليس صحيحاً أن ٢ + ٢ = ٤ دائماً . . فلو قلنا مثلاً أن تفاحة صغيرة + تفاحة كبيرة = تفاحتين . فليس هذا صحيحاً . وإنما الصحيح أن تتساوى التفاحتان في الوزن والشكل واللون والطعم ، وليس هذا ممكناً . إذن هذه المعادلة الشهيرة ٢ + ٢ = ٤ ليست صحيحة .

كما أنه ليس صحيحاً أن المستقيم هو أقصر خط بين نقطتين . . لأنه لا توجد خطوط مستقيمة مطلقاً . فالخط الذي ترسمه على هذه الورقة مستقيم ، لأنه مواز لخط أخر . . فأين هو هذا الخط الآخر؟ . ثم أنه مستقيم أمام العين المجردة . . هات الميكروسكوب وانظر إلى هذا الخط، فسوف تجده مثل الطرق الزراعية أو الصحراوية مليئاً بالمطبات والانحرافات والانكسارات . إذن هو مستقيم أمام العين ، وليس كذلك تحت الميكروسكوب . .

إذن الخط المستقيم هو الشعاع الذي ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية ، من الشمس إلى الأرض أو من المصباح الكهربي إلى الورق . . ولكن أين هو هذا الشعاع؟ ثم أين هو هذا الشعاع الذي لا ينكسر بتأثير من جاذبية أي جسم أخر . إذن لا يوجد حتى الشعاع مستقيماً . فلا مستقيماً في هذا الكون . .

وعلى ذلك فالألفاظ العلمية والفلسفية ليست دقيقة . . إنها مثل الكلمات الجميلة البليغة التي يستخدمها الشعراء . .

إذن كل الألفاظ التي يستخدمها الشعراء والفلاسفة سواء . ولكن الفرق : هو أن الشاعر سعيد بما لديه ، والفلاسفة أشقياء بما لديهم . . وإن كان الفلاسفة يحاولون أن يعيدوا وزن وقياس كل الألفاظ التي يستخدمها الشعراء والناس العاديون ، فيعجزون عن ذلك . .

فالشعراء أسعد حالاً من الفلاسفة ومن العلماء . . إنهم يصنعون جبالاً من ذهب ، وأنهاراً من فضة دون أن ينشغلوا كثيراً بعيار الذهب أو سعر الفضة ، أو من أين جاءت الجبال ، أو لماذا لا تجف الأنهار التي تصب في البحار ـ فلا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت . .

يقول الشاعر البوصيري في «البردة» النبوية :

يا لائمي في الهوى العذري معذرةً
منّي إليك ، ولو أنصفت لم تلمِ !

ويقول أمير الشعراء شوقي في «نهج البردة» :

يا لائمي في هواه والهوى قدر
لو شفك الوجد ، لم تعذل ولم تلمِ !

فما هو معنى اللوم والهوى والعذرة والإنصاف واللوم . .

وإذا أنت نجحت في تفسير هذه المعاني، لـوجدت صعوبة في تفسير الموسيقى وأين هي في هذين البيتين وفـي هاتين القصيدتين وعند هذين الشاعرين. . ثم ما هو موقع البيت في قصيدة كل منهما!

ويقول البوصيري أو شوقي في نفس القصيدة:

والنفس من خيرهـا في خيـر عافية
والنفس من غيّهـا في مرتـع وخمِ

ويقول شوقي أو البوصيري في هذه القصيدة:

والنفس كالطفـل إن تهملـه شب
على حب الـرضاع وإن تفطمـه ينفطم

فما هي النفس أو ما هي الروح؟ إن القرآن الكريم يجيب عن ذلك: **﴿ يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا. ﴾**

فليس هناك شيء واحد دقيق: لا عند الشعـراء ولا عنـد العلماء!

فكل الشعراء علماء، إلا بعض العلماء.

وكل العلماء شعراء، إلا بعض الشعراء!

وكل شيء وكل معنى وكل لفظ هو بالتقـريب. . لأنـه لا يوجد شيء واحد معروف بدقة تامة!

حتى لو قامت القيامة
لماذا لا نزرع شجرة؟!

لا أحد يعرف من الذي قال: إذا قامت القيامة، أزرع شجرة! لقد أدعى شرف هذه الحكمة كثيرون في كل العصور. أي في كل وقت يحتاج فيه الإنسان إلى شجرة.. إلى لون أخضر.. إلى الحياة..

ومعنى العبارة: أنه حتى لو قامت القيامة، ولم يعد لأي شيء معنى أو غاية، وحتى إذا لم يستفد أحد بهذه الشجرة، فلنزرع شجرة..

أي في وجه الموت يجب أن نزرع الحياة.

أي يجب أن يكون الإنسان إيجابياً في أي وقت!

وقد قامت القيامة في ألمانيا عدة مرات..

ففي كل الحروب التي أحرقت أوروبا، شرقاً وغرباً كانت ألمانيا هي البارود أو هي الكبريت الذي أشعل البارود.. أو هي النظرية المقدسة التي تنادي بأن الموت هو الشرف، والدمار هو العمار، والنار هي الجنة!

ولذلك ففي ألمانيا اليوم أكبر دعوة لزراعة الأشجار، أو للإبقاء على الأشجار خضراء.. لأن لون الأشجار في ألمانيا

أصفر. لون الخريف. . بل أن الأشجار لم تعد تعرف من كل فصول السنة إلا الخريف، ومن كل الألوان إلا الصفرة، ومن كل الحركات إلا السقوط. لماذا؟

لأن السيارات قد زادت، وتكدس «عادم» السيارات بارتفاع مترين على سطح الأرض. . وفي ذلك قتل للنباتات والحيوانات. . فإذا جاءت الأمطار، هبطت بهذه المواد الكيماوية وسقت بها الأرض. وانتقل سم النبات إلى الحيوان ومن الحيوان إلى الإنسان. . فإذا مرض الإنسان - وهو يمرض - اتجه إلى الصيدليات. والصيدليات امتلأت بالمواد الكيماوية التي هي قتل أنيق. هكذا نجد الإنسان في ألمانيا، وفي الدول الصناعية الكبرى يموت مرتين: بالمواد الكيماوية التي تخرج من السيارات والطيارات ومن المصانع، وبالمواد الكيماوية الموجودة في الصيدليات!

فهناك ثلاثة من القتلة في ألمانيا، وفي الدول الصناعية الكبرى:

سائق السيارات.

والطبيب.

والذين ينادون ببقاء الأسلحة النووية. في ألمانيا، استعداداً لأية حرب ضد الإتحاد السوفيتي!

وفي إحدى مسرحيات الكاتب الألماني الذي انتحر من

سنوات «فاسبندر» نجد سيارة فخمة ضخمة يقودها أحد علماء الذرة. فاستوقفه واحد من المثقفين في الشارع

وسأله: عالم ذرة؟

قال: نعم.

وسأله: وهل أنت طبيب أيضاً؟

فقال: نعم.

وهنا خر الشاب ساجداً وهو يقول: سبحانك يا الله!

أما المعنى فهو: لأنه يقود سيارة فسيارته تطلق مواداً سامة.. ولأنه طبيب فسوف يعالج مرضاه بالمواد السامة.. ولأنه عالم ذرة فهو يعمل على إشاعة الطاقة الذرية وقتل كل الناس!

وحزب الأشجار.. أو حزب الخضر في ألمانيا، ليس حزباً بالمعنى المألوف.. وإنما هو «فئة».. وكل المثقفين فئة، وليسوا طبقة متجانسة مثل طبقة العمال والفلاحين وإنما هم مجموعة من الرافضين والساخطين للأوضاع القائمة.. وهم لذلك من كل مذهب في السياسة وفي الدين وفي الحياة أيضاً.

وقد بدأ «حزب الخضر» في ألمانيا يدعو إلى وقف بناء المطارات.. لأن المطارات تكتسح الأرض المزرعة.. ثم

تهبط فيها الطائرات التي تخدمها ألوف السيارات ـ سيارات النقل وسيارات المسافرين . وكلها تطلق عادماً يقتل الأرض المزروعة . . ثم أنه لا بد من حفر الطرق في قلب الحقول والغابات . .

ثم أن هناك مطارات حربية ، أي سيارات وطيارات ودبابات وصواريخ . وهناك أسلحة نووية . . والعالم لم ينس بعد ماذا حدث في اليابان . . والعالم لا يزال يرتجف من تكدس الأسلحة النووية على الأرض وحول الأرض في الفضاء الخارجي . . والعالم لا ينسى الأسلحة النووية السوفيتية التي سقطت خطأ فوق كندا . . وكان من المتوقع أن تسقط فوق إيطاليا أو فوق مصر . . ولا يزال الرئيس القذافي يلعب بالطاقة النووية . . أما إسرائيل فلديها هذا السلاح من عشرات السنين . . ومن المؤكد أنها لن تستخدمه ضد أمريكا وإنما ضد العرب !

وألمانيا قد عرفت حروباً طويلة وكثيرة . . والتطور العلمي الهائل هو الذي دفع هتلر إلى أن يشعل الحرب توسيعاً لرقعة الأرض وتيسيراً على الشعب الألماني المتزايد، ومزيداً من السلطة والأبهة . . وقد مات من الألمان عشرة ملايين . . وشوهت الحرب عشرين وهدمت كل المدن ... وأتت بالحلفاء ويحتلون ألمانيا، أرضاً وجواً وبحراً . . ولا يزال الحلفاء يهددون ألمانيا بالانسحاب منها لتكون عارية أمام السوفييت!!

فحزب الأشجار يدعو إلى الحياة وإلى السلام وإلى نزع أسلحة الدمار ـ وخصوصاً الأسلحة النووية التي تضعها أمريكا في مواجهة روسيا على الأرض الألمانية . .

ويلقى هذا الحزب الصغير تأييداً متزايداً. صحيح أن الحزب ليست له نظرية واضحة في الاقتصاد والسياسة. فقط يريد الحياة. فقط يريد البيئة النظيفة من المواد الكيماوية السامة التي تقتل الأشجار والطيور والحيوان ـ والإنسان بعد ذلك!

ولكنه يلقى معارضة رسمية منظمة . .

لأنه حزب يؤيده الشباب وطلبة الجامعات ورجال الدين . .

ولأنه يتضمن عناصر شيوعية رافضة للأوضاع السائدة في ألمانيا ـ أو أنهم يتهمونه بذلك!

فالدعوة إلى تقليل عدد السيارات وإنقاص سرعتها، وتركيب «مرشحات» في أنابيب العادم حتى تتناقص كميات الغاز الذي يخرج منها ـ كل ذلك يلقى معارضة مستمرة . .

فإنقاص سرعة السيارة تعترض عليه شركات المطاط. لأن ألمانيا تستهلك كميات هائلة من الكاوتش، وذلك بسبب الطرق المرصوفة التي تغري بالسرعة الكبيرة. وإنقاص سرعة السيارة يؤدي إلى نقص في الاستهلاك . . كما أن

شركات التأمين التي تعيش على الحوادث، بسبب السرعة، تعترض أيضاً. وكذلك شركات توزيع الوقود.

تماماً كما تعترض شركات السجائر على التحذير المستمر من أضرار السجائر.. وكما تعترض شركات الأدوية على التخويف الدائم من الإسراف في تعاطي المواد الكيماوية، وعلى الدعوة إلى استخدام الأعشاب. والدعوة إلى الحياة الطبيعية التي يعتمد فيها الإنسان على المقاومة العبقرية الموجودة في جسمه ضد الميكروب وضد الدواء أيضاً!

وليس غريباً أن يكون من بين قادة «حزب الخضر» شبان وشابات قد أصيبوا بأمراض خطيرة.. بالسرطان مثلاً. والسبب هو هذا الجو المسموم الذي يعيش فيه أبناء الدولة الصناعية..

ولا يزال كتاب الباحثة الأمريكية راشيل كارسون الذي عنوانه «المستنقع الصامت» أكبر إدانة للصناعة المتطورة في العالم كله. فهذا الكتاب عرض علمي مخيف لأثر المبيدات الحشرية في أمريكا. هذه المبيدات قد أسكتت الطيور وذلك بالقضاء عليها.. وأعدمت الفراشات.. فاختفى من المستنقع كل الأسماك ومن سمائه كل الفراشات.. فالطائرات تمطر الجميع بالمبيدات التي تقضي على كل مظاهر الحياة..

بل إن الطائرات الأمريكية التي اتخذت مطاراتها في قلب الغابات، بعد أن خربت الأرض، انتقلت إلى السماء تقضي على الطيور التي تعترضها وتدخل في محركاتهـا.. وقـد استخدم الأمريكان عشرات المبيدات من بينها مادة نترات الفضة التي ترشها على الطيور فتذيب المواد الدهنية في أجنحتهـا وفـي ريشها. فإذا اختفت هذه المادة أصبحت الطيور ريشاً على لحـم.. فالدهـن يقـوم بدور المـلابس الـداخلية عنـد هذه الطيور ـ وهكذا تموت من البرد.. ثم تموت!

فهل تنتهي هذه الحرب؟.

أما الحرب بين الإنسان والإنسان، فهي تشتعل ثم يتوقف إطلاق النار، ليستعد الإنسان لجولة جديدة.. وهكذا إلـى نهاية الحياة..

فالحرب هي الأصـل، والسـلام ضيف غريب علـى هذه الأرض.. وقد عرفت البشرية ٤٥٥٢ سنـة قتـال، بينمـا لم تعـرف إلا ٢٤٣ سنـة سلام أو وقف إطـلاق للنـار ـ هذا ما يقوله أبو المؤرخين في العصر الحديث: أرنولد توينبي!

أما حرب الإنسان بينـه وبين نفسـه فلن تنتهـي. وهـكذا يكون الإنسان قد اختار أقسـى أعدائـه عليه.. لقـد اختـار نفسه..

اختـار الـذي يصنع الـدواء ويقاومـه، يصنـع الـداء ويقاومه.. ثم ينهار تحت جلده.. صريع نفسـه.. ضحية ضعفه.. وعبقريته أيضاً!

زُكَامٌ . . . في القِمَمْ!

إذا سافرت إلى الخارج فمن المؤكد أنني سأذهب إلى مكانين لا ثالث لهما: المكتبات والصيدليات بحثاً عن الكتاب الجديد، وعن أحدث العقاقير المضادة للزكام!

أما الكتب فقد ورثتها عن والدي - أي حب القراءة - وعندي من الكتب أكثر من سبعين ألف كتاب.

أما الحساسية للبرد والخوف منه فقد ورثته عن والدتي، فأنا حتى هذه اللحظة لا أزال في عز الصيف أتغطى باللحاف والبطانية، وإذا لم أفعل فإنني أعطس وأصاب بالزكام والسعال. وإذا أدهشك ذلك، فأنا على استعداد لأن أقوم لك بعرض خاص!

ولا أذكر أنني لم أصب بالزكام في أي وقت فقد ولدت مزكوماً، وسوف أعيش كذلك!

وفي بعض الأحيان يكفي أن يتحدث الناس عن الزكام لكي ألتقط هذه الفكرة، وبدلاً من أن أديرها في رأسي فإنني أحشرها في أنفي - والباقي أنت تعرفه!

ذهبت إلى بلاد التبت لكي أكون أول من يتحدث إلى

«الدلاي لاما» أي حاكم بلاد التبت. ووجدت صعوبة في لقائه، ووجدت حيلة: تظاهرت بالمرض وحملوني إليه، نيابة عن الشعب المصري! هكذا قلت له. وكانوا قد لفوني في بطانية، فالجو في جبال الهيمالايا بارد جداً، ولكن.. بسبب الاحتياطات الكثيرة، لم أصب بالزكام. ووجد أنني قد سقطت أمامه على الأرض. ولا بد أن يكون قد أضحكه ذلك. ولكني لم ألاحظ. وكل الذي لاحظته، أن أنفه أحمر وشفتيه متورمتان وأنه يعطس. أي أنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الزكام. وجلست وتحدثت والتقطت له صوراً. وادعيت أمراضاً كثيرة. وإنني جئت لكي أشفى منها.

وانفردت برؤيته وتصويره والحديث معه، وكنت أول صحفي في العالم يقابل الدلاي لاما بعد طرده من التبت!

وأصابني الزكام! وظللت ألعنه شهوراً طويلاً، فقد سافرت من الهند إلى سيلان، إلى أستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان.. والزكام لم يبرح أنفي وحلقي إلا عندما وجدت نفسي في مياه المحيط الهادىء في هاواي ـ فالخوف من الماء قد استطاع أن ينقذني من الزكام!

وفي يوم جاءني تليفون في ساعة مبكرة يقول: سيادة الرئيس يريد أن يراك. وذهبت إلى بيت الرئيس السادات، وانتظرت في الصالون، فجاء من يقول: بل هو يريدك فوق.. في غرفة النوم.

ووجدت الرئيس ممدداً في فراشه وواضح عليه الإعياء.

فقلت: سلامتك يا سيادة الرئيس.

فقال وهو يسعل: الأنفلونزا.. أهلكتني، حطمت عظامي. تفضل واغلق الباب وراءك!

طبعاً أغلقت الباب، وأنا على يقين إنني سوف أرتمي في فراشي أسبوعاً بعد لحظات. ولا بد أنه الخوف هو الذي أوقف نشاط ميكروبات الزكام، فلم أعطس في الساعات الأربع التي جلستها مع الرئيس.. هو يتحدث وأنا أيضاً، وهو يعطس ويسعل والباب مغلق!

ولا أعرف كيف انتهى اللقاء، ولم أستوعب تماماً كل الذي قاله.. وإن كنت قد تظاهرت بذلك.

ونزلت من بيت الرئيس واتجهت إلى أقرب صيدلية. وطلبت حقنة نوفالجين وفيتامين جيم.. وابتلعت عدداً من الحبوب، ودخلت إلى الفراش ووضعت الجوارب في قدمي والطاقية الصوف في رأسي، ودخلت تحت أكثر من لحاف وبطانية. وانتظرت الزكام أن يجيء ولكنه لم يجيء، وأدهشني ذلك وأخافني أكثر!

ثم جاء بقوة وغزارة!

وفي يوم طلب مني الموسيقار محمد عبد الوهاب أن أمر عليه في البيت، وذهبت. وقال لي: نحن مدعوان إلى

العشاء في بيت الفنانة فاتن حمامة. وليست عندي سيارة.

وذهبنا وتعشينا. وبعد منتصف الليل سألت الأستاذ محمد عبد الوهاب: هيا بنا. فوجدته متردداً.

ولم يبق إلا هو وأنا.. فقال: بصراحة إنهم يقولون أنك مزكوم، وأنا طلبت كمال الطويل في التليفون. وسوف يجيء حالاً!

- فقلت: بل لست مزكوماً، ولو كنت مزكوماً ما خرجت من تحت اللحاف.

بل مزكوم!

- لست مزكوماً.. أؤكد لك!

ويبدو أنه لاحظ أن هذا مقلب من عبد الحليم أو من شادية، لا أعرف. واتفقنا على أن ننزل إلى الطابق الأرضي فرادى.. هو ينزل من مصعد وأنا أنزل من مصعد.

والتقينا في الدور الأرضي. وطلب مني أن نقف ظهراً لظهر، وأن أردد وراءه هذه العبارة التي سوف تكشف إن كنت مزكوماً.

- قال: قل ورائي.. من منكم محمد محمود؟

فقلتها مرة ومرتين..

وإذا به سعيد جداً يقول: براءة.. كل حروف الميم عندك سليمة!

وفي يوم اتفقت مع السيدة أم كلثوم على لقاء. وكنت في ذلك الوقت أكتب لها عبارات حماسية بعد نكسة ١٩٦٧. وكانت هي تلقيها بصوتها في إذاعة الشرق الأوسط.

وانتظرتها في الصالون، وغابت. وسألت فقالوا لي: حالاً.

وغابت. وعدت أسأل فقالوا: دقائق.. فقد تلقت مكالمات تليفونية كثيرة!

وتضايقت، وقررت أن أخرج. وخرجت. ولم أكد أهبط السلم حتى وجدت أم كلثوم تركب سيارتها ولم تكد تراني حتى قفزت من السيارة وقالت لي: أنا مزكومة وعبد الوهاب هو الذي اقترح أن أكلمك في التليفون.. فخرجت لكي أتحدث إليك من تليفون الجيران!

وضحكت وأنفها في منديلها: اسمع.. أنت مش كنت عاوز تغنّي زمان؟

- قلت: أيوه.

- قالت وأنا أصافحها: جرثومة الفن التي انتقلت إليك الآن من تلحين عبد الوهاب وأنصحك أن تبدأ بأغنية: أبتى الزبان.. يزبح يا جبيل (إمتى الزمان يسمح يا جميل)!

كنت من أشد الناس حباً لصوفيا لورين. . ليست أجمل الجميلات، ولكن أبسطهن وألطفهن. فهي إيطالية فلاحة فقيرة، ثم أنها غجرية ـ إذا تكلمت حركت ذراعيها وساقيها ورأسها. . وربما حركت بعض أدوات الطعام وألقتها في وجه من تتحدث إليه. . كأن أطرافها لا تكفي، فهي تحتاج إلى أطراف صناعية أخرى!

ذهبت إليها، ولم تكن مشهورة جداً هكذا. لون بشرتها أعرف اسمه: إنه البن المخلوط باللبن والمخلوط بالنبيذ الأحمر. فسألوني: من أي البلاد؟ فقلت بلهجة إيطالية سليمة: من مصر!

ـ قالوا: من أي الشركات السينمائية؟

ـ قلت: شركة الجيل السينمائية.

وكنت وقتها رئيساً لتحرير مجلة الجيل ١٩٦٠، ولا توجد شركة سينمائية بهذا الاسم.

ـ وسألوني: هل تريد حديثاً، أو صورة معها، أو صورة فقط، أو توقيعاً على الصورة دون أن تراك وتراها؟!

وأحسست بالإهانات المتكررة فقلت: بل أريد أن أعطيها صورة لي وعليها إمضائي. . فإذا كانت هي نجمة صغيرة في بلادها، فإنني من النجوم اللامعة في بلادي!

وتضايقت من هذه العبارة الأخيرة، عندما نظرت إلى

ملابسي: قميص وبنطلون وشبشب زنوبة ـ مثل أي صعلوك إيطالي.

ومن بعيد رأيت صوفيا لورين: تمددت على كرسي على جانب من حمام صغير. . القوام ممشوق ممدود. الساقان والذراعان والشفتان والأنف والعينان عسليتان خضراوان، والبشرة حلوة لامعة.

ولما رأتني ضمت كل شيء. . الساقين والذراعين وقربت ما بين العينيين. . واكتسحتني تماماً بنظرتها، وكنت في حالة دفاع عن النفس. . فبدأت الكلام معها قائلاً:

ـ صحيح أنت أجمل الفاتنات، وأن بطولة السينما قد أعدت لاثنين في هذا الزمان: أنت ومارلين مونرو، ولكن الجميلات متواضعات، وأنا لا أملك إلا ما كنت تملكينه قبل أن تكوني هكذا جميلة الجميلات: الشرف والصدق.

ووقفت صوفيا لورين وكأنها تستمع إلى طفل صغير يقرأ من الذاكرة صفحة من كتاب في النصوص الأدبية. . ثم عطست!

وقفزت أنا إلى الوراء. . فقد ظننت أنها قد وقفت لتحييني أو أعجبها كلامي، أو أن بساطتي قد ذكرتها ببساطتها، وليست على يقين حتى الآن، إن كانت هي التي تصرخ ورائي: تعال. . لا تخف. . تعال!

وفي كل مرة أرى صوفيا لورين على الشاشة، أجدني لا شعورياً أضع يدي على أنفي أو أحاول الهرب!

* * *

وفي الشهر الماضي اتصل بي الصديق عبدالله الجفري، الأديب السعودي، وقد أرسل لي صفحات من كتابه الجديد مع الفنان الكبير عبد السلام الشريف - وهو من أكثر العواجيز شباباً في العالم العربي. وأنا أعرفه على الصورة التي تراها اليوم من ثلاثين عاماً. لا تغير شكله ولا صوته ولا خفة دمه، ولا عدم إحساسه بالزمن.. فهو عادة لا يجيء في الموعد، وأحياناً يجيء بغير موعد، ظناً منه أنه قد نسي أن يجيء حسب الإتفاق. ولا تكاد تراه حتى يعتذر لك عن تأخره - مع أنه لا موعد هناك. ولكنه قد اعتاد على الإعتذار!

وسألت عن الأستاذ عبد السلام الشريف في بيته. فقال لي: إنه يحمل أوراقاً من عبدالله الجفري، وإنه شديد الأسف لأنه مصاب بأنفلونزا حادة!

- وسألته: ولكن ما هي أعراض هذه الأنفلونزا؟

- قال: سخونة.. لا عطس، ولا زكام، ولكن حشرجة في الصوت.. تكسير في العظام.. حبسة في البول.. إمساك، وانخفاض مفاجىء في درجة الحرارة وعرق. ولم أعرف كيف انتهت المكالمة. ولكني اتصلت بوزير الصحة

الصديق د. صبري زكي. فقال: إن هذه أعراض لم نسمع عنها بعد. ولم تعلن الصحة العالمية عن هذا الأنفلونزا الجديدة!

وسألت صديقي د. اسماعيل بدر الدين في هيئة الصحة العالمية فأكد لي أن هذا هو «أول» تبليغ يتلقاه عن أنفلونزا، وسألت وزير الصحة عن الذي ينصحني بتعاطيه فقال: أنت تعرف أكثر من أي شخص آخر أن الأنفلونزا تغير جلدها واسمها كل سنة، وهذه الأنفلونزا لم نتشرف بمعرفتها بعد.. ولكن من باب الاحتياط يحسن أن تأخذ..

وذكر لي بعض العقاقير التي أعرفها.

وكان عالم الفضاء المصري د. فاروق الباز قد أعطاني حبوباً يتعاطاها رواد الفضاء. فابتلعت واحدة منها فوراً ـ مع أنني لم أر عبد السلام الشريف، ولن أراه؟ وجاءني تليفون من الأستاذ عبد السلام شريف بأنه في الطريق. فتركت مكتبي وعدت إلى البيت، وطلبت من السكرتير أن كل الأوراق التي جاءت من عبدالله الجفري، يجب أن يضعها في «الفريزر» في الثلاجة لمدة ثلاثة أيام حتى تموت الميكروبات. فقد علمت من الصحة العالمية أن فيروس الزكام لا يعيش تحت الصفر.

وبعد ثلاثة أيام قرأت الأوراق التي بعث بها عبدالله

ولا بداية ولا نهـاية ولا هداية ولا ضرورة لبطــل آه. . . .
آه. . . . أنا أعرف أن هذه هي النهاية منذ البداية، فأنت قد
ألقيت بهـذه الصحيفـة في الأرض. . فكان لسقوطهـا دوي
أوجعني في رأسي، فاعـذرني فأنا لم اعتد على ذلك!

هذه الصورة وغيرها!

من أرق الخطابات التي تلقيتها في حياتي ما كتبه الأستاذ الصديق علي حافظ الذي أسعدتني صداقته الطيبة.

يقول: إن الصور التي تنشرها لي الصحف لا تشجع أحداً على لقائي. فأنا متجهم الوجه. وهذا من شأنه أن يجعل أي إنسان «يطفش» إذا رآني - أو لا يحاول ذلك.. مع أنني إنسان مرح وقادر على الضحك وعندي من نوادر الناس ونوادري ما يملأ ساعات طويلة لا تعرف الملل. فلماذا لا أغير هذه الصورة وأضع بدلاً منها صورة كأنها أحضان مفتوحة لكل من يريد أن يلقاني؟!

ولم أفكر في ذلك..

ولكن لا أعرف كيف أنشر صورة ضاحكة مع مقال ليس كذلك.. إذن لا بد من أن يكون هناك عدد من الصور تتناسب مع المقالات التي أنشرها هي: صورة ضاحكة وصورة باسمه وصورة متأملة وصورة متألمة.. وصورة لا تدل على ذلك..

ولكن ما هو الرأي إذا كنت أرى أن مقالي ليس ساخراً،

ويراه سكرتير التحرير كذلك . . ما الرأي إذا كنت جاداً ، ورأى رئيس التحرير أنني هازل . . فمن الذي يحكم لي أو يحكم على هذه الصورة .

أذكر أن الأستاذ العقاد قد أوقعني في أزمة مع زملائي في صحف «أخبار اليوم» فقد هاجم رئيس التحرير وسكرتير التحرير واتهمهم جميعاً بالشيوعية ، وكاد يتهمني أيضاً . لماذا؟

يقول لي العقاد في ذلك الوقت : أنا لا أفهم معنى هذه الصور التي يضعونها مع مقالاتي . شيء عجيب . . إذا كنت جاداً وضعوا لي صورة بالبيجاما والطاقية ، وإذا كنت هازلاً وضعوا لي صورة بالطربوش والبدلة . . إنها مؤامرة!

ولم يسترح الأستاذ العقاد عندما قلت له : إن سكرتير التحرير لا يفكر في كل ذلك .

فقاطعني : وكيف لا يفكر في الصورة التي ينشرها للعقاد؟

قلت : من الواجب أن يفكر . ولكنه عادة لا يفعل . فهو مشغول فقط بتغطية مساحات . . يريد صورة ٤ سم أو صورة ١٠ سم . . ولا يهمه إن كان بالطربوش أو بالقبقاب!

وقاطعني الأستاذ العقاد غاضباً : هذا جهل . . وسوء تقدير!

وهو كذلك . . ولكن هذا ما يحدث!

وهذا واحد من المواقف الصعبة التي يواجهها كل الذين كانوا يتعاملون مع الأستاذ العقاد. فهو يفكر في كل شيء.. ويعتقد أن كل الناس كذلك..

وفي إحدى المرات اكتشف الأستاذ العقاد أن حرف القاف عليه نقطة واحدة. بينما «طه حسين» قد وضعنا نقطتين على حرف «النون» ولم يلاحظ ذلك أحد!! ومن الطبيعي أن يقال إنه خطأ مطبعي، ليس مقصوداً من أحد أن يسرق النقطة من «قاف» العقاد ويضعها على «نون» طه حسين!

وعندما قابلت مارلين مونرو في أمريكا سنة ١٩٥٩. طلبت أن ألتقط لها بعض الصور. ولكن قاطعني مدير أعمالها قائلاً: اطلب أي نوع من الصور وأنا أبعثها لك في أي مكان من العالم. اطلب.

فقلت: أريد مجموعة من الصور!

وسألني مدير أعمالها: أي نوع.. بملابسها.. من غير الملابس.. وهي تضحك.... وهي تبكي.. كل ما تريد ممكن!

فقلت: طبعاً وهي تضحك فهي أجمل مخلوقات الله، وابتسامتها أجمل ما أعطاها الله!

وظننت أنني قلت شعراً.

فقال الرجل متجهماً: لا أفهم..

قلت: أريد صوراً لها وهي تضحك

قال متسائلاً مؤكداً سذاجتي وجهلي معاً: تضحك؟ لأنها قابلت شخصاً تحبه.. تضحك لأنها قابلت واحداً بعد غياب طويل.. تتظاهر بالضحك.. تضحك وقد علمت بأنها كسبت فجأة مليون دولار.. أو هل تضحك بصورة هستيرية لأنها بعد أن قيل لها أنها كسبت المليون قد خسرتها.. تضحك شماتة.. تضحك بلا مبالاة.. ضحكة طويلة.. ضحكة قصيرة.. كل هذه أنواع من الضحك.. فماذا تريد؟

ولم أعرف ما الذي أقوله.

ومضى مدير أعمالها: إنها اليوم تصور فيلماً سوف تبكي فيه تسع مرات. وكل مرة لها معنى.. وسوف تضع الكأس عند شفتيها ١٢ مرة وكل مرة لها معنى..

قلت: إن ضحكتها اليوم قد أسعدتني جداً.

فقال: وكيف فهمت هذه الضحكة؟

ولم أكن قد فكرت في ذلك فقلت: إنها سعيدة بلقاء واحد جاء من آخر الدنيا يبدي سعادته بهذه اللحظات..

قال: بل هي ضحكت لأنها رأت لأول مرة من وقت طويل اليزابيت تايلور وقد مرت بسيارتها وراءك.. أي أنها عندما نظرت إلى اليزابيت تايلور سحبت عينيها فاعترضت أنت طريقها هذا هو المعنى! فهي لم تضحك لك، وإنما ضحكت

لأشياء كثيرة أنا أعرفها، وتصادف وجودك أثناء ميلاد هذه الضحكة ووفاتها أيضاً!

ثم قال كلاماً خاطفاً مثل سكين: وهل تتوقع أنت أن تضحك لك مارلين مونرو إذا عرفت أن حكومتك قد منعت أفلامها في مصر لأنها تزوجت الكاتب اليهودي أرثر ميللر ـ مع أنه لا يشكل أية خسارة مادية أو أدبية عليها. . إلخ.

وعندما عدت إلى مصر وجدت الرجل قد بعث بأربعين صورة ـ وكلها ضحكات وابتسامات لمارلين مونرو!

أما تفسير هذه الضحكات أو الابتسامات فتحتاج إلى كتب. .

ولا تزال ابتسامة اللوحة المشهورة «موناليزا» لغزاً من الألغاز. . فهي سيدة هادئة الوجه وضعت يديها أمامها. وقيل لنا إذا نظرت إليها من أي مكان فهي تبتسم لك. إنها تبتسم لكل الناس. وابتسامتها أبدية. . ولكن لماذا؟ هذا سؤال لم يلق جواباً واضحاً حتى الآن.

وقيل أن الرسام دافنشي عندما قرر أن يرسم لوحة لهذه السيدة، فقد دعا إحدى الفرق الموسيقية لتعزف وتغني، لتساعد هذه السيدة على أن تبتسم. فقط أن تبتسم. وابتسمت. أي أن الابتسامة معناها: سعادتها بما تسمع من

الموسيقى الهادئة ، وسعادتها بأن يرسمها الفنان العظيم ليوناردو دافنشي . .

ولكن علماء ومؤرخين أقل خيالاً ورومانسية أثبتوا أنها لم تكن تبتسم لا للموسيقى ، ولا للرسام ، وإنما لمولود في أحشائها . . فهي حامل . . ولذلك فابتسامتها مزيج من الأمل والخوف والسعادة بمولودها . .

وبقى هذا التفسير الواقعي أحد التفسيرات التي سمع عنها الناس . . وأكثر الناس يفضلون أن يسعدوا بغموض الابتسامة التي يفسرها كل واحد على هواه . .

وربما هذه سعادتها لأنها حامل سوف تلد . .

ولكن ما قولك في الذي يحمل ويلد كل يوم . . عدة مرات . فليس في استطاعتي أيها الصديق أن أرسم مثل هذه الابتسامة الهادئة ، فالولادة عملية شاقة . ثم إنني واحد من المحكوم عليهم بالأفكار الشاقة المؤبدة . . ورغم ذلك فإنني لا أتوقف عن الحمل الصحيح والحمل الكاذب والولادة في موعدها والولادة المبتسرة . .

ولو رأيت الذين يؤلفون النكت والصور الكاريكاتورية لوجدتهم في غاية الكآبة والحزن ، لأن التفكير عمل شاق . . وفي اللغة نقول : اهتم بمعنى اغتم . . واهتم به واهتم له . .

وفي اللغة العامية في مصر عندما يصفون إنساناً بأنـه حزين فيقولون: مسكين عنده فكر!

وعندي فكر كثير!

لا تعتذر فقد أوجعت رأسي!

إذا كان رد الفعل الوحيد عندك كل يوم بعد أن تفرغ من قراءة الصحف والمجلات، أن تمط شفتيك وتهز كتفيك، بما معناه أنك لست فاهماً شيئاً، وأن الذي يهمك قد أغضبك، وأن الذي أغضبك قد أيأسك من الكاتب، فأنت إنسان عادي جداً ومثلك مئات الملايين - دعني الآن أحدثك عنا نحن العرب!

الأغاني مثلاً: أكثر الأعمال الأدبية انتشاراً وأحبها عند الناس. ماذا تقول!.

ما هذا الحب والبكاء والعويل ما معنى أن يقف رجل بشوارب يبكي ونصفق له تشجيعاً على ذلك.. له وللموسيقار والشاعر ليمضوا معاً في طريق يبدأ بالحب وينتهي بالبكاء أو يبدأ بالبكاء وينتهي بالقطيعة، والحب هو أقصر الطرق إلى المحبوب. ولكن من هو أين هو بين المستمعين؟ لا أحد بهذا العذاب والهوان ووجع القلب. لا أحد محروماً إلى هذه الدرجة. وإنما نحن قد اعتدنا على ذلك! إذن فلمن يتحدث الشاعر والمطرب؟ وإذا اتجهت إلى مجال أجمل وأكثر غضباً في مجال الأدب والقصة والشعر فأنت أمام أناس

ساخطين جداً على الذي بين أيدينا: فلا أدب ولا فكر ولا فن ولا أمل . . .

وعلى الرغم من أن هذا يأس مؤكد، فإن النقاد - إن كان هناك - لم ييأسوا والقراء لم يشبعوا. والدليل على ذلك انتشار الكتب.

ولكن النقاد يؤكدون دائماً أننا بلغنا مرحلة اليأس الذي هو إحدى الراحتين. فاليأس هو الراحة الأولى والموت هو الراحة الثانية من الراحة الأولى. فاليائس لا يعمل وإنما هو توقف عن الفكر وامتنع عن العمل. أما الموت فهو القضاء على هذا اليأس . . . لأن اليائس لديه أمل إلى حد ما. فهو يائس مما يراه، ولكنه عنده أمل في شيء أفضل هو يتوقعه ولكنه هو شخصياً لا يقدر عليه. . فإلى من يكتب الناس؟

وفي السياسة: أي الفكر السياسي والأدب السياسي المسرحي والروائي والسينمائي. فلها جميعاً معنى واحد: إنه راحت علينا والسبب جماعة منا. أكثرهم مات. وأقلهم يجب أن يموت. ومعنى ذلك أننا كدسنا الماضي في الحاضر، ثم رميناه على المستقبل. . وبدلاً من أن نجد حلاً لمشاكلنا، طردنا المشاكل تبحث لها عن حل عند الأجيال القادمة عند الشباب. والشباب الذي هو المستقبل، يدين الأكبر سناً. . ويرى أنهم ورطوه في مشاكلهم. تماماً كما يموت أبي تاركاً ديوناً وأمراضاً وراثية، فكيف أترحم عليه أي

أنني أنكر شرعية هذه الأبوة. . أي أن هناك حراماً بين هذا الجيل والـذي يليه. . وهـذه هي «الشقـة الحـرام» بين الأجيال. . فمن هو المقصود بهذه التهمة والمحاكمة.

وفي الروايات والمسرحيات والقصائد والأفلام عودة إلى الماضي. . أي إعادة النظر في الماضي، وإبراز المصائب والكوارث، ثم التنديد والتعويض بالحاضر. . وهذا الأدب الرمزي دليل على أن الكاتب ليس حراً، أو يريد أن يوهم بذلك. . فهو يجد له عذراً في الاتجاه إلى الوراء، وإدارة ظهره إلى المستقبل ولذلك فهو يلمح ويغمز ويشير ببعض يده ولسانه. . وهي تهمة الحاضر. . فإن كان الـذي يقولـه صحيحاً فلماذا الصمت؟ وإن كان مفتعلاً لذلك، فلماذا الكذب؟ وإن كانت هذه حيلة فنية فلماذا الخداع؟ وإن كان ضرورياً اتخاذ موقف، فأين هي القدوة الحسنة؟ وأين هو الهدف من الفن والأدب؟

سؤال: من هو المقصود؟

جواب: إنه القارىء.

سؤال: ومن هو القارىء؟

الجواب: كل قادر على شراء الصحيفة وإلقائهـا في الزبالـة بعـد ذلك. . هي والكتـب والأغنيات والكاستـات والنظريات!

ما هو الهدف؟ أي من هو القارىء المثالي . . والكاتب المثالي . . والمشكلة النموذجية والحل الأمثل؟

أي من هو البطل القادر بشجاعة وتضحية على أن يحقق إنجازاً إنسانياً عظيماً؟ لم تعرف الإنسانية بطلاً واحداً فكل زمان له بطل. وكل بطل له زمان. وكل بطل له مواصفات وشروط تتغير في داخل الإنسان الواحد، وتختلف من إنسان إلى إنسان ومن مجتمع إلى مجتمع . . وبين رجال السياسة والتعليم والدين والفن.

إذن هناك طبقة من الأبطال . . عند الإغريق كان البطل خارقاً وكان إلهاً - أي قادراً على فعل المعجزات. ثم أصبح البطل إنساناً قادراً على فعل شيء يشبه المعجزات. ولكنه ما دام قد حقق ذلك، فلم يعد معجزة . .

والقوي بطل كل يوم . .

والغني بطل كل ساعة . .

والجميل بطل كل لحظة . .

وفي زمن كان البطل هو المقاتل ثم كان هو الفلاح المسالم. ولذلك وجدنا عوليس بطل الألياذة، عندما استدعوه للقتال، راح يبذر الأرض بالملح . . أي اختار أن يكون محبوباً على أن يكون قاتلاً . .

وفي زمن كان الفنان والرسام والشاعر الخلاق، الذي

يقلد الله في إبداعه . . وكان العالم ، وكان الرحالة . . .

وبعد الحرب العالمية الثانية انهارت البطولات والمذاهب السياسية . . أصبح الإنسان الفقير هو البطل . . أو ملايين من الناس الصغار معاً ، هم البطل . . . الشعب الجماهير . . الأغلبية الصامتة . . رجل الشارع . . الذي لا مزايا له ولا موهبة ـ وكان ذلك اعتذاراً متأخراً عن تجاهل الإنسان العادي ألوف السنين ! ثم أصبحت المدن التي تقاوم الغارات الجوية والأرضية هي البطل . . لندن وبرلين وهيروشيما والقادسية والمنصورة . وأصبحت معالم المدن أبطالاً أيضاً : الشوارع والجسور والخنادق . .

واختفى الأبطال . ولم يعد من الضروري أن يكون الإنسان خارقاً خرافياً ليبهر الناس وإنما يكفي أن نبحث عنه بدموعنا ورموش عيوننا . . وتحت أقدامنا ، ثم لا نجده . . إنه البطل المجهول . إنه البطل المنتظر . . إنه المنقذ الموعود . .

وظهرت مسرحيات بطلها شخص نتحدث عنه ولا نراه ، ننتظره . . ثم أنه لا يجيء . . إنه طوق النجاة . . إنه المظلة الواقية . . إنه المنقذ من الضلال . . المهدي المنتظر إنه مانع الصواعق . . حاجز الأمواج . . مطفىء الحريق . .

وعندما اختفى البطل من الرواية والمسرحية ، ظهر بطل

آخر. . إنه النص المسرحي. . إنه الكلام . . أياً كان هذا الكلام. . وأصبح الغموض وعدم الفهم وعدم الإقناع هو البطل!

أي البطل هو ألا يكون بطل، وألا يكون لهذه الكلمة معنى، وإذا كان لها، فلا ضرورة لذلك. لأن أحداً لم يعد يفهم أحداً. لأن أحداً لا يعرف كيف ينقل معانيه إليك. . الفكر عاجز، وأنت لا تريد، ثم أن قاعات المسارح كالمكتبات العامة فارغة فلا جمهور. .

والمسرح محكمة إذا اعتذر القاضي وغاب المحامي، ولم يحضر المتهمون والدفاع والجمهور فهل محكمة بعد ذلك؟

ولقد تقدمت الإنسانية كثيراً بفضل البطل، وبحثنا عنه، وسرنا وراءه. . . والإنسانية الآن تعاني عذاب غيابه، وظل وجوده، وصدى صرخاته. . ولكي يهديك أحد، لا بد أن يكون طريق. . له أول وآخر. وتكون الهداية رغبة حيوية ويكون الهادي ضرورة قيادية.

ولكن الناس أصبحوا كالشوارع. . مفتوحة على كل اتجاه. . ولذلك تضاربت وتداخلت. فكثرت الشوارع وتعددت الميادين. فكانت كثرتها، سبباً في حيرة كل من يريد أن يمشي حتى أصبح المشي صعباً. . فكأنه لا شوارع. .

الجفري . . وأحمد الله أنني نجوت من الزكام بأعجوبة .

ومن الغريب أنني قابلت دبلوماسياً صديقاً، وبعد الأحضان والقبلات اعترف لي بأنه مزكوم!

ولكن عندما سألته عن الأعراض، وجدتها مختلفة تماماً . .

هنا أحسست بالسعادة .

إذن فزكام الأستاذ عبد السلام الشريف، لم يكن هو الزكام النموذجي لهذا العام. وإنما هو الذي أدخل عليه بعض التعديلات والقاعدة هي: إنه إذا اختلفت ألوان الزكام في بلد واحد، فليس وبائياً . . أي لا خوف منه . الحمد لله!

قَاتلُو الأسَاطِيرِ الجَميلةِ

كليوبطرة ملكة مصر بهرت الأدباء والشعراء: بجمالها ودلالها وقوتها وصلابتها وانهيارها وانتحارها بعد ذلك!

وقد حاول كل الأدباء أن يجربوا أقلامهم في وصف هذه الشخصية الساحرة في كل التاريخ القديم ففيها: الحب والجنس والسفالة والسياسة وفيها ذل الرجال وبطش النساء.. ثم أنها عندما قررت أن تموت اختارت أن يكون ذلك بيديها. وقد اختارت الموت الناعم المفاجىء.. تجملت وتعطرت وأتت بأفعى مثلها.. وأطلقتها عليها.. وفي ثانية واحدة سقطت كليوبطرة ليكون جمالها قوة أخرى تستخدمها بعد الموت. فيكون الفقد بموتها أعظم، ويكون سقوطها باهراً..

ولم يفكر أحد من الشعراء ما نوع هذا الثعبان الذي استخدمته كيلوبطرة؟ فالذي هز العالم هو المعنى، هو الوسيلة، هو النهاية، هو إرادة الموت..

ولكن علماء الحياة راحوا يبحثون عن فصيلة هذا الثعبان.. هل هو ثعبان أبو جرس.. هل الثعبان ذو القرون هل هو الكوبرا.. واختلف العلماء عشرات السنين. ولكن

صدر الحكم النهائي في قصة الثعبان في كتاب صدر أخيراً بعنوان «الكوبرا الفرعونية وزواحف أخرى» . . فالثعبان ـ إذن ـ الذي استخدمته كليوبطرة هو «الكوبرا» المصري . . الذي ظهر شكله في تاجها ، وظهر في الملابس والنقوش الفرعونية . . وهو حيوان طوله خمسة أقدام. إذا أحس بالخطر فإنه يقف عالياً ويتراجع إلى الوراء نافخاً رأسه فيكون على شكل كف اليد. ثم ينقض.

أما الثعبان الذي اعتاد المؤرخون أن يقولوا أنه هو الذي قتل كليوبطرة فهو من نوع «الحية» أي الذي يستخدم في الانتحار وليس في الموت ـ أي التهديد بالموت فقط فهو قليل السم . وسمه ليس قاتلاً. ولكن كيلوبطرة التي تعرف ذلك ، اختارت ثعباناً قاتلاً. وكان هذا الثعبان الكوبرا. وهو لا يوجع . ولكن سمه قاتل بعد بضع ثوان ! .

ومن الحوادث المعروفة في تاريخ الموسيقى أيضاً أن الموسيقار العظيم موتسارت عندما توفي عن ٣٥ عاماً لم يمش في جنازته إلا عدد قليل من الناس من أهل فيينا . . ومن الغريب أن زوجته لم تمش في هذه الجنازة. وقال المؤرخون أن الجو كان بارداً عاصفاً وأن زوجته كانت مريضة . وقد منعها أصدقاء الفقيد العظيم أن تغامر بالسير في جنازته !

ومن المعروف أن الموسيقار كان قد تقدم لخطبة فتاة .

ولكن هذه الفتاة رفضته، فلم تكن ترى فيه شيئاً خارقاً للعادة.. وتزوجت هذه الفتاة مدرساً للرسم. هذا المدرس لم يدخل التاريخ إلا لأنه رسم لوحة للموسيقار موتسارت!

ثم تزوج هذه السيدة التي أحبها وأحبته، ولم تمش في جنازته لمرضها! ولكن واحداً من علماء الأرصاد الجوية راح يقلب في التاريخ، فاكتشف أن يوم ٥ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٧٩١ الذي مات فيه موتسارت لم يكن ممطراً ولا عاصفاً. إذن لماذا لم تمش امرأته في جنازته؟

زاح هذا العالم يبحث في الأسباب الحقيقية لذلك فوجد أن خلافاً نشب بين العبقري وزوجته هذا الخلاف أدى إلى ما يشبه القطيعة. فقد اتهمها بالخيانة واتهمته أيضاً.. ثم أنه لم يكن متفرغاً تماماً لأن يكون زوجاً فقد كان ينهال عليه اللحن الموسيقي ولذلك كان غائباً عن الوعي طول الوقت.. وكان أيضاً لا يهتم بما له من حقوق مالية لدى الناشرين يؤلف ويبدع فقط. أما كيف تعيش زوجته، فلم يكن يدري عن ذلك شيئاً!

وإذا بهذا المؤرخ يكتشف أيضاً أن زوجته كانت تنفر منه كما كانت تنفر كل الفتيات من عبقري آخر هو بيتهوفن.. فقد كان الموسيقار بيتهوفن لا يستحم.. وكان له رأي: أريد أن أحتفظ بدرجة حرارة ثابتة لجسمي.. والماء يفسد هذا الجو المناسب للإبداع!

وقد اندهش المؤرخون أيضاً كيف أن أديباً عظيماً حساساً مثل فيكتور هيجو طالت علاقته بسيدة معروفة بأنها لا تهتم كثيراً بتجميل نفسها ولا حتى استخدامها للعطور. . وكانوا يفسرون ذلك بأنه إمعان في الجنس. وكانوا يصفون هذا المزاج الغريب لأديب فرنسا العظيم هيجو بأنه يفضل أن يقتلع الثمار بطينها من الأرض. . ولذلك لا يحب أن يغسلها أحد. . وكذلك النساء!

ولكن أحد الأطباء بحث في هذه الظاهرة الغريبة، فإذا به يكتشف أن هيجو فقد حاسة الشم في العشرين عاماً الأخيرة من عمره!!

وهكذا يفسد العلماء بالبحث والتنقيب ذلك الجو الأسطوري لكثير من أحداث التاريخ. . تماماً كما أفسدوا علينا القمر، الذي لم يعد إلا حجراً دائرياً بارداً ذا وجهين يسبح حول الأرض. . نراه جميلاً من بعيد، وهو مميت من قريب. .

ولن يتردد العلماء لحظة في أن يفتحوا عيوننا وآذاننا بالقوة، حتى لا تبقى في خيالنا صورة شاعرية أو سحرية لشيء مما نحب!

هَذِه الكَلِمَةُ . . مَا مَعْنَاهَا؟

من هواياتي البحث عن معاني الكلمات الغريبة . من أين جاءت؟ ولماذا اتخذت شكلها الحالي؟

مثلاً عند السعوديين والخليجيين كلمة لم أجد لها تفسيراً ، ولكني حاولت . فأنت إذا تحدثت إلى الواحد منهم فإنه يقول لك : سم .

ورجعت إلى أصول اللغات ، وإلى اللهجات العربية القديمة وحاولت أن أعرف من السعوديين أنفسهم . ولكني لم أجد من يقول شيئاً مقنعاً .

وأخيراً اهتديت بمحض المصادفة إلى معناها . وهو موجود في كثير من اللغات الأوروبية . فكلمة «سم» هذه هي فعل أمر . من التسمية : أي «سم» هذا الشيء الذي تريده . . أي أذكره . . قل اسمه وأنا آتي لك به .

وفي اللغة الإنجليزية العادية يقولون : name it أي تحت أمرك . . «سَمِّ» هذا الذي تريده . . أي اطلب ما تشاء . وفي اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والأسبانية ما يرادف هذه الكلمة!

ووجدت عندنا في صعيد مصر يقولون: الديك، أما الدجاجة فيقولون عنها: البللينا. وأدهشني ذلك.. ولكن بسرعة وجدت أن هذه كلمة إيطالية محرفة، ففي اللغة الإيطالية: جالو.. معناها ديك، وجالينا معناها: دجاجة!

وفي شمال مصر تتحدث الفلاحات عن «الجزمة» وعن نوع من الجزم يسمونه الشكربين.. وهي كلمة إيطالية أيضاً. فالجزمة بالإيطالية معناها: اسكاربينو.

ونقول: استابينا.. أي اتفقنا، وهو تعبير إيطالي بمعنى: كويس.

وفي مصر نستخدم تعبير: يدكن، أي يختبىء. ونقول: دكاكيني.. أي سراً.

ووجدت في اللغة الألمانية: بيدكن ـ أي يخفي. ولكن الكلمة المصرية العامية لم تأت من الألمانية وإنما جاءت من الدكان وإخفاء الأشياء في الدكان الصغير.

وفي اللهجة العامية كلمة: طناش، ويطنش.. أي يتظاهر بأنه لا يسمع.

ونستخدم هذا الفعل: لازماً ومتعدياً فنقول: فلان يطنش.. أي رجلاً يتظاهر بأنه لا يسمع. ونقول: طنشه أي أغفله.. أي تجاهله.

والكلمة جاءت من أن رجلاً يونانياً كان عضواً في مجلس

الشعب المصري. وإنه لم يكن ينطق وكأنه ليس موجوداً.. فهو لا يسمع أحداً، ولم يسمعه أحد.

وفي أوائل عهدنا بالجامعة العربية كان بها عضو مستمع اسمه «الكابس».. وانتشرت هذه الكلمة في مصر. فيقال: حضرت ولكن كنت «كابس» ـ أي حضرت ولم أتكلم!

ولكن عندما ظهر طناش، اختفى الكابس!

وفي مصر تعبير شائع، لم نأخذه عن أحد، وإنما ولدته الظروف.. فنحن نقول: الرجل «اللي هوه»، والسيارة «اللي هيه» ـ أي الرجل الذي هو مناسب، أو أحسن رجل، والسيارة التي هي أحسن سيارة.

ونقول أيضاً: لم يعجبني فلان.. لم يكن موقفه «اللي هوه» ـ أي الموقف الذي هو مناسب.. الموقف المثالي.

وفي إعلانات الكوكاكولا نجد هذه العبارة: الكوكاكولا «اللي هيه» cocacol is it[3]

وقد ظهر كتاب لدافيد هالبرشتام بعنوان: القوة التي هي the power is that be[33] أي القوة اللي هيه!

والكتاب يتحدث عن قوة الصحافة في أمريكا، وهي القوة «اللي هيه».. أي القوة الحقيقية.. القوة التي تنفرد بهذه الصفة!

وأذكر أنني عندما زرت اليمن، أثناء وجود القوات

المصرية هناك، أطلقت نكتة . . وسارعت بإبلاغ هذه النكتة لقائد القوات المصرية .

ـ وقلت له: أنا الذي قلت هذه النكتة. وأريد أن أقولها لك كما خطرت لي!

فقد خشيت أن تتطور هذه النكتة وتتهور وتصل إلى مصر وإلى الرئيس جمال عبد الناصر، فتكون قد اتخذت شكلاً وحجماً آخر. . ولم يكن الموقف يحتاج إلى مثل هذه النكتة. وكان في استطاعتي ألا أقولها، ولكنني قلتها.

ولم أكد أصل إلى القاهرة حتى كانت النكتة قد اتخذت الشكل المخيف الذي خشيته، ولكن رواة هذه النكتة دفعتهم الأمانة الكاملة أن يغيروا ويبدلوا في أطراف النكتة، ولكنهم احتفظوا بنسبتها إلى صاحبها ـ لي أنا مع الأسف!

وبعد سنتين جاء إلى القاهرة فيلم أمريكي وأدهشني جداً أن أجد هذه النكتة في الفيلم! وضحك الناس واندهشوا كيف وصلت هذه النكتة المصرية إلى أمريكا. ولم أعرف في ذلك الوقت كيف؟

وذهبت إلى هوليوود وزرت بعض الاستديوهات وزرت قسماً خاصاً بالنكت. . هذا القسم يتلقى النكت من جميع أنحاء العالم. . ومؤلفو الأفلام والذين يكتبون السيناريو والحوار يذهبون إلى هذا القسم ويطلبون النكت التي

تناسب المواقف المختلفة. ويجدون في نكت الدنيا ما يحتاجون . .

ووجدت هذه النكتة التي أطلقتها على المصريين وعلى الرئيس جمال عبد الناصر، المكان المناسب في هذا الفيلم!

وكأن غريزة الموت قد تنبهت في أعماقي فجأة، فكتبت مقالاً عن هذا الفيلم. ولم أشر إلى هذه النكتة، ولكن «أولاد الحلال» أشاروا إلى ذلك. . وتساءلوا إن كنت أنا الذي بعثت بها إلى أمريكا؟

ثم كتبت مقالاً عن «حكمة الشعوب» . . وأن الشعوب تصل إلى المعاني والكلمات والنكت نفسها إذا تشابهت الظروف، وهذا يفسر أن المشاعر الإنسانية واحدة. . لأن الإنسان واحد. . ولكن الظروف هي التي تختلف، فإذا اختلفت الظروف كان التعبير عنها مختلفاً ـ أي أن هذه النكتة من اختراع الأمريكان لأن لهم ظروفاً متشابهة لنا. . إلخ.

وفي نهاية الفيلم ظهر عدد من البحارة الهنود في ولاية «كيرالا» وهي في أقصى جنوب الهند يجرون المراكب على الشاطىء ويقولون: هيلا. . ليصا. . هيلا. . وهما كلمتان فرعونيتان. . فكيف وصلتا إلى هذه المناطق من جنوب آسيا؟

تماماً كما نجد الكثير من الكلمات الفرنسية في لبنان

وسوريا وتونس والجزائر والمغرب، والكلمات الإيطالية في ليبيا، والكلمات الإنجليزية في الخليج، مثل: الكاسات والبلاسات والبوتلات والمطارات، والبنشر. وتجد كلمة «بستكانة» وهي أكواب الشاي الصغيرة.. وهي كلمة فارسية مأخوذة عن اللغة الروسية!

وأذكر أنني ذهبت إلى مدينة نيروبي عاصمة كينيا. وكنت أعرف مهندساً خبيراً في شؤون الزراعة، ودعاني إلى بيته. وزوجته إنجليزية إيطالية الأصل. جميلة جداً. ولم يكن هو كذلك! ولم أشغل نفسي كثيراً بتفسير ذلك. فالإنشغال بتفسير ذلك معناه: أنني استكثر عليه ما هو فيه. وهو شعور شرير شنقته في أعماقي.

وجاءت السيدة وسألت: ما الذي أحبه من الطعام؟

ـ فقلت: أي شيء. فلا يوجد لي طعام خاص. وإنما أفضل أن تختار هي: وأن تحدثني عن أسباب الاختيار ونحن نأكل.

وجاء الطعام: اللحوم بالطماطم والفلفل الأخضر.. والصلصة من الإيطالية بالصلصة والجبنة والبصل. وجاءت الفاكهة، والقهوة، وقبل أن ننهض قدمت لنا فطائر تشبه «ميل في» ومعناها «الألف ورقة».. ولكنها كانت غارقة في اللبن والسكر والقرفة والزبيب والبندق..

وقالت: تعلمت هذه الفطيرة من أوغندة إنهم يسمونها: ماللي.. ويقولون أنها من أصل عربي.. أنت تستطيع أن تعرف!

وأجهدت رأسي. ووجدت أنها «أم علي» ولكنهم ينطقونها هكذا:.. أم آلي.. ماللي!

و«أم علي» هذه قد اتخذت اسمها من «أم علي» وهي زوجة عز الدين أيبك التركماني الذي قتلته شجرة الدر عندما طلبت إليه أن يطلق زوجته أم علي، فطلقها، ولكنه خطب واحدة أخرى من سوريا.

فطلبت من خادماتها أن يقتلنه في الحمام. فضربوه بالقباقيب والجزم حتى مات!

وكان الناس لا يحبون أن تحكمهم امرأة مثل شجرة الدر.. أو أية امرأة.. وقالوا فيها شعراً كثيراً.. ركيكاً أيضاً مثلاً:

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لهن رأياً سنياً
ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبياً

ولكن «علي» ابن «أم علي» هو الذي اعتقلها. وأسلمها لأمه. فما كان من «أم علي» هذه إلا أن أطلقت عليها عدداً من الخادمات قتلتها بالقباقيب!

وابتهاجاً بهذا اليوم السعيد أمرت «أم علي» بعمل الفتة

باللبن والسكر لكل الشعب . . ألـوف الحلل والطشـوت قد وضعـت في الميادين ليأكل الشعـب في هذه المناسبـة السعيدة .

واتخذ هذا الطبق اسم «أم علي»

والله أعلم؟

فيِ الظِّلاَل . . في الضَّبَاب
في السَّحَاب : نَعيشُ !

هناك أسطورة إغريقية تقول إن «الحقيقة» جاءت إلى الناس عارية فهربوا منها فذهبت الحقيقة ووضعت بعض ثيابها . فأقبلوا عليها !

أي أن الناس لا يحبون الحقيقة عارية . أي لا يحبونك أن تصارحهم بعيوبهم ومهما قال لك أحد: أنا رجل صريح وأحب الصراحة ، فلا تصدقه . فلا هو صريح ، ولا هو يحب الصراحة !

وإذا لم يكن ذلك مقنعاً لك ، فجرب أن تقول الحقيقة لزوجتك . كأن تقول لها مثلاً لا داعي لارتداء هذا النوع من الملابس فأنت كبرت الآن !

وسوف تندم على ذلك ما حييت !

فلو كانت المرأة تحب الصدق ، ما وضعت الأحمر والأبيض ، وما ذهبت إلى الحلاق ، ولا ارتدت الكعب العالي إلى آخر ما تتجمل به المرأة ـ أي إلى آخر ما تخفي به حقيقة لون بشرتها . واتساع عينيها .

وأنا لا أذكر أني قرأت مقالاً واحداً للصديق الأديب

«عبدالله الجفري» دون أن ابتسم لا لأنه يقول كلاماً يدغدغك فتضحك. . ولكن لأنني أراه يمشي على الحبل! وهذا يحتاج إلى قدرة فذة في التوازن. . فهو يمشي بين الغريزة والحب. . بين الصراحة والألغاز. . بين أن يلمح وبين أن يصرح. فهو إذا تحدث عن الحب، أطلق سحباً من الضباب وملأ الدنيا ظلالاً. . لا لأن الليل قد هبط فجأة، ولا لأن النور قد انقطع ولكنه يريد أن يقول في الوقت نفسه!

وهو كثير التلفت وراءه وأمامه. . إنه يخشى أن يسمعه أحد، وهو يتحدث إلى نفسه. . ويخشى أن يراه أحد وهو يقلب في الصور.

وهكذا نجد أنفسنا أمام التناقض اللغوي: فاللغة هي الوسيلة التي نستخدمها لأن نكشف عما نريد. . وهي أيضاً الوسيلة التي نخفي بها ما نريد!

فاللغة مثل الملابس تخفي أشياء. وتبرز أشياء أخرى.

وهذا هو المعنى الحقيقي لاختراع الإنسان للغة لكي يوضح بها ما يريد، ويخفي بها ما يريد أيضاً!

وفي الأدب، وفي الشعر، وفي الفن رجال حاولوا أن يحجبوا ضوء الشمس، حتى يظلوا في الألوان الرمادية، وفي الظلال، وفي الضباب. . لا لأنهم يكرهون النور، ولكن لأنهم يفضلون أن يجمعوا بين صفات الإنسان والأرواح

والأشباح . . وفي ذلك حريتهم ففي النور نرى الأشياء جزءا جزءا . ولكن في الظلال يتحد الكون كله إنسانه وحيوانه ونباته . . أرضه وسماؤه .

ولا أعرف من هو الشاعر القديم الذي قال ما معناه : أن النهار يريني صخور الأرض ، والليل يريني نجوم السماء؟

وكان الأستاذ العقاد الذي ولد في أسوان الحارة يقول : كان من الطبيعي أن أكره الشمس التي ولدت تحتها ، وأن اتجه إلى الظلال والضباب ، وأن أضع على عيني منظاراً أسود ، اتقي به لسعة النور وضربة الشمس . ولكني أحب النور . . أحبه مفرقاً في أشعة الشمس ، وأحبه مجمعاً في الزهور والورود .

ولكن صديقنا الأديب الرومانسي «عبدالله الجفري» ولد في الصحراء وتحت الشمس . . أي بين نوعين من المرايا : الرمال اللامعة تحت قدميه ، والسماء الباهرة فوق رأسه . . اختار أن يتقي كل ذلك بالعبارة والرموز والقصة والشاعرية . . فقد اختار أن يضع في غرفته وفي داخل عقله وقلبه جهازاً لتكييف الضوء والحرارة .

أما هذه العبارة التي تجيء في نهاية مقاله اليومي ، فلكي يذكر القارىء ، أنه مهما كتب في السياسة ومهما غضب للمجتمع الدولي وعليه ، فقد كان في نيته أن يقول شيئاً ما لولا

أنه لم يبق في الصفحة إلا هذه المساحة الصغيرة التي تتسع لبضع كلمات في موضوع مختلف تماماً!

فإذا حدث ذلك كل يوم ولسنوات، وإذا كنت تعرف السبب الحقيقي، ألا ترى أن ذلك يدعو إلى أن نبتسم لكل الرومانسيين في السياسة والأدب؟!

أما أنا فلن أتردد، ولن أمل أن أفعل ذلك.

وأنت هل حضرتك بيتهوفن؟!

أفنيت عمري كله أدرس الفلسفة الألمانية والأدب الألماني، وأسبح في التيار الموسيقي الألماني، معه وضده.. ولا يوجد اسم ألماني في عالم الفكر لا أعرفه ولم أعش معه، ولم أوجع رأسي بحثاً عن أصله وفصله.. ولذلك فأنا أتردد على ألمانيا منذ سنة ١٩٥٠.. وأنتقل بين مغانيها ومفاتنها وخرائبها ومتاحفها ثم لا أجد وجهاً للشبه كبيراً، بين الذين ألقاهم وبين الذي أقرأ لهم وأعيش معهم وأكتب عنهم.

فمهما ذهب الإنسان بين المدن الألمانية والقرى، شمالاً وجنوباً فلن يجد رجلاً يشبه الموسيقار فاجنر، ولا أحداً يشبه الفيلسوف هيدجر، ولا الشاعر جيته ولا العالم الذري بلانك.. ولكنهم جميعاً من الألمان!

أذكر أنني نزلت ضيفاً على جامعة بتنجن ـ وهي إحدى الجامعات العريقة التي اتخذت لها مكاناً في مدينة بنفس الاسم. المدينة هادئة ـ كانت ـ ليست فيها مواصلات.. ولا عربات ولا سيارات.. وإنما الناس يمشون على أقدامهم.. ويتفرجون في أدب على أقدام وسيقان

الأخريات. . ولكي يتفرجوا أكثر فقد استدرجوا الطالبات إلى ركوب الخيول. . أو أكتاف الشبان. . وفي هذه المدينة توجد حديقة اسمها «حديقة التأوهات». . الحديقة في حضن نهر السالزاخ. . وفي الحديقة يستأنف الشبان ما قالوا همساً فيؤكدونه لمساً، في الليل في فراش الأشجار. . والأشجار ـ قد ألقت أوراقها وأغصانها «تقيةً» للجميع. .

وفي يوم وجدت الخادمة تدق بابي. . في ساعة مبكرة. . خير اللهم اجعله خيراً. وكان خيراً فوجهها جميل صباحاً ومساءاً وفي أي وقت. . والشعر ذهبي طويل معقوص على رأسها. . وبعض هذا الشعر تدلى واستراح على جبهتها العالية. . ومن تحت شعرها لمعت عينان زرقاوان. . كعين الشاعر نوفالس، ولها نظرة حادة مثلما كان يفعل أمير الشعراء هيلدرلن الذي عاش ومات على مدى عشرين متراً من هذا البيت الذي أقيم فيه. . أما لهجتها الألمانية فجنوبية مثل لهجة الفيلسوف شوبنهور. . أما عنقها. . أما صدرها. . أما ذراعاها. . أما الذي صدمني فهي إنها جاءت تسألني قائلة: إنني لا أعرف ما الذي يريده ٧٩؟

وسألت: من يكون ٧٩؟

قالت: هذا الرجل الوقور الذي يسكن الغرفة ٧٩؟

وفكرت: آه. . الأستاذ ابراهيم الدسوقي. . إنه أعلمنا

جميعاً باللغة الألمانية . . إنه الذي ترجم كتاب «النيل» من تأليف إميل لودفيك . . وترجم عشرات من القصص والقصائد الألمانية . .

فقالت الخادمة: ولكني لا أفهم ما الذي يقوله؟

سألت: كيف لا تفهمينه . . ألا يتكلم الألمانية؟

قالت: إنه يتكلم الألمانية . . ولكني لا أعرف بالضبط ماذا يريد؟

قلت: إذا كنت لا تفهمين الذي يقوله فكيف تفهمين ما نقوله نحن؟

قالت: ولكني أفهم تماماً ما تقوله الآن؟

ومضت بسرعة وأنا أتلفت إلى ما لم أره من قوامها الألماني وغضبها البروسي وميوعتها البافارية . .

وذهبت إلى الأستاذ الدسوقي، لأعرف منه ما الذي حدث . . وطلبت إليه مداعباً أن يقول لي بالضبط ما الذي قاله للفتاة فخافت منه ولم تعرف كيف تلبي رغباته . . وهو ألطف الناس وأرقهم وأكثرهم نظاماً . . فهو يكنس الغرفة ويرتبها وينظمها . . ويشتري الورود على حسابه، فإذا جاءت الخادمة كتبت له ورقة على السرير تقول فيها: شكراً لك يا سيدي الدكتور!

لم استطع أن أخفي ضحكة عالية وأنا استمع إليه وهو يردد ما الذي قاله للخادمة. قال لها: أيتها الحسناء الصغيرة الرقيقة الأصابع الناعمة، يا ذات العينين من مياه الراين، والأجفان من أوراق الغابة السوداء، والشفتين من عصير النبيذ، والعين من نجوم السماء، والعنق من شجر الصنوبر، والكتفين المستديرتين مثل كتفي سارة لاياندر التي أسكرت هتلر، والوجه كأنه وجه الشاعر شيلر والصوت المبحوح كأنه استغاثة الموسيقار موتسارت، أما الباقي فكله ألماني مائة في المائة، بالله ألا أتيت لي بكوب من الماء!!

ولكنها ليست مثل واحد من هؤلاء. ولا من الضروري أن تعرف منهم أحداً! إنها ألمانية. وهم ألمان عباقرة. وإذا كانت قد عاشت على نفس الأرض وأكلت نفس الطعام، فليس من الضروري أن تكون لها كل هذه المواهب العظيمة!

وفي هذا التناقض الهائل بين الألمان العاديين وعظمائهم يتنقل كل من يسافر إلى ألمانيا.. وينزه العين، والخاطر، ويقلب القلب، ويطلق عقال العقل.. ويشعر أنه مثل كل هؤلاء العباقرة ضيف على هذه «البيئة» الفريدة..

وحتى لا يشعر الإنسان بأنه غريب وسط غرباء، فإنه يحاول أن يملأ الدنيا عليه بهؤلاء العظماء.. فيبحث عن بيوتهم ومقابرهم ومتاحفهم وكتبهم وأسطواناتهم.. ويراهم

في كل الوجوه وكل الأصوات وكل الأجساد . .

ويوم ذهبت إلى مدينة فرانكفورت التي ولد فيها الشاعر جيته ، دخلت إحدى المكتبات ورأيت رجلاً طويلاً عريضاً قد أسند ظهره إلى الحائط يقرأ وإلى جواره ابنته الصغيرة أو حفيدته . . ونظرت إليه طويلاً . . ولاحظ الرجل ذلك . . فأحنى رأسه تحية أو استفساراً .

فقلت : أليس من أفراد أسرتك أحد من أسرة الشاعر جيته ؟

فضحك الرجل كثيراً وقال : ذهبت بعيداً جداً . . وليس بعيداً أيضاً ؟

وعاد يقول : لسوف تجد كثيرين هنا لهم ملامح جيته . . إنهم ألمان . . ولست واحداً منهم . . ولكن ظننت أنك تعرف أنني ابن الراقصة الشهيرة روزالينا . .

وأشار بيده فوجدت لها صورة طويلة عريضة على أحد الكباريهات . . كأنه هي وقد ارتدت ملابس الرجال !

ومنذ أيام ذهبت أزور البيت الذي عاش فيه الموسيقار بيتهوفن في العاصمة الألمانية بون . . وأنا أعرف كل صغيرة وكل كبيرة في حياة وتعاسة هذا العبقري . . أعني كيف أصيب بالصمم ، وأعرف كيف أنه أصيب بالتهابات جلدية ،

فقد كان الاستحمام ترفاً لايقدر عليه. . وأعرف كيف كان يثور على الدنيا وعلى نفسه فيمزق كل ما كتب. . وكيف أنه كان يخفي القليل من المال في القليل من ملابسه، هرباً من أقاربه الطامعين فيه. . وأعرف كيف أنه كان يغلق الباب حتى لا تدخل القطط والكلاب تنقض على ما تبقى من طعامه الملقى على الأرض. . ولم يفكر لحظة واحدة كيف يتخلص من الطعام حتي لا تجيء القطط والكلاب. . ولا كيف يضعه في إناء. . ويوم زاره أحد النبلاء وجده يخرج لقمة من الخبز قد وضعها في حذائه. . ثم راح يمضغها واندهش الأمير. . وقال بيتهوفن مفسراً هذه النظرية الجديدة بكل جدية وسمو: حتى لا تأكلها الصراصير!

وحاولت جاهداً ألا أقارن بين أحد أراه من الألمان وبين الموسيقار العظيم. . ولكن كيف ذلك؟ إن الطريق إلى كل شيء حولك يمر بوجوه الناس، ولا تستطيع أن تتجاهل عيناك عيونهم، ولا أذنك أصواتهم، ولا أن تفصل احترامك العظيم له عن احترامهم أيضاً. . ولا عن أن تقول مثل الذي يقولون. . ولا تستطيع أن تقاوم «وحدة اللغة» ـ أي عندما تنحسر كل الحروف وكل الكلمات إلى كلمة واحدة هي: بيتهوفن!

وقلت مداعباً أحد الحراس: هل حضرتك من أسرة بيتهوفن؟!

ورفع الرجل قبعته قائلاً جاداً جداً وكأنه سمع مثل هذه العبارة مليون مرة: نعم يا سيدي ولي الشرف العظيم. فقد كان جدي الأكبر خادماً له.. الخادم الوحيد!

بل لا تتهم أجهزة التكييف!

التعبير والعبور بمعنى واحد.

وأنا عندما أعبر، فإنني أجعل المعاني تعبر من هنا إلى هناك.. وكل الحضارة الإنسانية في الحركة التي تقطع أطول وأقصر مسافة في الدنيا: بيني وبينك.

وحركة المعاني هي «العبور» ومحاولتي نقلها إليك هي «التعبير». والتعبير معناه الشرح والتفسير. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿**إن كنتم للرؤيا تعبرون**﴾

والأديب تولستوي هو الذي وصف التعبير والعبور بأنه نوع من «العدوى» تنتقل مني إليك. فإذا استطاع طفل ـ مثلاً ـ أن يبكي والديه بأن روى لهما قصة من خياله، فهذا هو الفن ـ أي الذي قام به الطفل..

وهذا هو المقياس لقدرة الفنان على عدوى القراء والمتفرجين والمستمعين.

ولكل منا ذكريات. فأنا عندما كنت أقرأ رواية «الجريمة والعقاب» للأديب دستويفسكي فزعت عندما ذهب البطل ليغتال صاحبة البيت ـ كدت أنهض فأغلق باب غرفتي!

وفي رواية «مدام بوفاري» لأديب فرنسا فلوبير، كانت البطلة تقف إلى جوار النافذة تنتظر زوجها، وقد تزينت وتجملت وتعطرت فهي فتاة حالمة.. أما زوجها فطبيب ريفي جاء على ظهر حصانه مرهقاً مكدوداً مهدوداً.. اتجه إلى الغرفة وجلس على حافة السرير دون أن يراها.. وخلع حذاءه.. ثم حذاءه.. ولكل حذاء صوت جعلني أضع يدي على أذني.. أو استفزني لأن أغلق الكتاب أمامي وأنهال بهذا الحذاء الغليظ على رأس الطبيب ـ وعلى رأس الواقعية الجديدة التي تمثلها هذه الرواية!

وفي أوروبا كلها تردد صوت الباب الذي أغلقته نورا بطلة مسرحية «بيت الدمية» للكاتب النرويجي ابسن. فالبطلة حديثة العهد بالحرية واستقلال الرأي، فقد وجدت زوجها مديناً فاقترضت من أجله. وغضب الزوج وثار وكذلك عدد من المشاهدين. فخرجت من البيت، وأغلقت الباب في وجهه ووجه المتفرجين والقرن التاسع عشر!

وكان لهذا الباب دوي في آذان الأدباء والنقاد وكل مفكري القرن التاسع عشر!

وأذكر أني قرأت وأنا صغير أول رواية عربية اسمها «زينات» لحسين عفيف. الرواية رقيقة شفافة شاعرية رومانسية.. تعرض لوحة موسيقية لكل ما هو جميل في الريف، ولكل المشاعر البسيطة التي لم تفسدها الحضارة..

ولو شاء روسو فيلسوف الثورة الفرنسية أن يكتب عن الريف المصري، ما كتب أفضل من ذلك. . وكانت البطلة مثل طفلة، كل ما تجده تريد أن تضعه بين شفتيها. . ووجدتني أضع القلم في فمي، تماماً كما وضعت هي أعواد البرسيم بين أسنانها!

وكان الكاتب الفرنسي أندريه موروا يقول من الصعب أن تقرأ رواية «الحرب والسلام» دون أن تجد نفسك مضطراً إلى أن تضع يدك على عينيك. . بسبب الغبار الكثيف المتطاير تحت أقدام الجنود وسنابك الخيل. .

ولم يكن الشاعر العربي المجنون قيس بن الملوح مجنوناً بدرجة كافية، عندما قال:

وإني لا مستشفي وما بي نعسة
لعل خيالاً يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلني.
أحدث عنك النفس في السر خاليا

فلو كان مجنوناً لظل في مكانه بين الناس يتحدث إليه، ولا يهم أبداً إن كان حوله أحد من الناس. إنه يفكر فيها. والتفكير فيها إيجاد لها. خلق لها. . وهكذا تنتقل عدواه كفنان إلى نفسه كعاشق مجنون!

والإغريق يتحدثون عن الرسام زويكسيس الذي رسم لوحة كاريكاتورية لسيدة عجوز فظل يضحك عليها ومنها

حتى مات . . لقد مات مسموماً : انتقلت عدواه إليه . . فكان القاتل والقتيل معاً!

وكان الأديب السويدي استرندبرج يعلق على جدارأمامه صورة لأحد خصومه مشنوقاً . . ولا يكتب إلا إذا نظر لهـذه الصورة . فالنظر إليها ينقل إليه خبر وفاة عدوه . . ويسعده ذلك!

أما الأستاذ العقّـاد فقـد كان يحـب فتـاة سمـراء ، تركتـه وانشغلت بكثيرين . . خطفتها أضواء السينما . وأبعدتها عن «الأستاذ» فغضب وطلب من صديقه الرسام صلاح طاهر أن يرسم له هذا المعنى : أن حبيبته مثل تورتة قد تكاثـر عليهـا الذباب . .

ثم طلب إليه أن يضع في اللوحة كوباً من الزجاج قد امتلأ بعسل النحل ، وتساقط فيه الذباب أيضاً!

والمعنى : أنها عسل يعافه العقاد إذا نظر إليه!

والعجيب أن اللوحة المحبوبة كانت أمام سرير العقـاد : أول ما يرى في الصباح وآخـر ما يرى في الليل . ولـو كان العقاد قد استراح لهذا المعنى مرة واحدة ، لاكتفـى بظهـور هذه اللوحـة في الصـحف ، أو في أحـد كتبـه . ولـكن هذه القضية لم تنحسم . ولذلك فالعقاد يستأنفها كل يوم : يستأنف القرف والاحتقار والشعور بالهوان والانتقام!

ومعنى ذلك أيضاً أن القرف والاحتقار الذي طلـب إلـى

الرسام أن يسجله في اللوحة انتقل إلى الرسام فقط. . ولكن الجرعة التي نقلتها اللوحة إلى العقاد ليس كافية. . فكان الأستاذ يحقن نفسه يومياً بهذا القرف. ولكنه قد استعصى على القرف وامتنع على العدوى أو أنه كان يستمتع بأن يرى محبوبته ملوثة، وأن يتعذب هو لذلك أيضاً!

إنها عذوبة العذاب، وإحياء يومي لجرح لا يجف!

* * *

وأنت إذا ذهبت إلى المسرح أو إلى السينما أو جلست أمام التلفزيون وعطست، فليس من الضروري أن يكون بسبب جهاز التكييف. . وإنما هي برودة المؤلف وجمود الممثلين. . ولا بد أن واحداً من هؤلاء حاول أن يعبر بالمعاني جسور الكلمات فسقط بك في كهوف الزمهريرا

تحداني أن أمشي في جنازته!

كما توقع تماماً، مات الشاعر الأرجنتيني لوليس فوليتا (٦٧ عاماً) في الأسبوع الماضي بباريس. وكنت قد قابلته في مصر من ثلاثين عاماً. وكان يؤمن بالنجوم، وكان يقرأ الكف ويفتح الكوتشينة ويضرب الرمل. وتعلم في مصر كيف يقرأ الفنجان. قرأ فنجاني فقال لي: كل الأماكن التي شربت فيها القهوة وشعرت بحالة من الإغماء سوف تنهدم. فاحترقت دار الأوبرا وانهدم فندق سميراميس.. أما مكتبي في «أخبار اليوم» فقد بقى كما هو، ولكني فصلت من عملي سنة ١٩٦١ رئيساً لتحرير مجلة الجيل، ومدرساً للفلسفة في الجامعة!

أما وفاته فقد جاءت كما أراد. شرب الكثير من النبيذ حتى فقد وعيه.. وطلب أن يملأوا عينيه لآخر مرة بجبال العنب وهي تدخل المصنع لكي تكون عصيراً ثم نبيذاً.. ولم يكد يراها حتى ألقى بنفسه عليها، فغاب تحتها ومات..!

وفي تاريخ الأدب والفكر حوادث عجيبة مثل ذلك..

فالشاعر الإغريقي تربائدر كان يغني فرماه أحد المستمعين بحبة تين، فاستقرت في فمه.. في حلقه. ومات مختنقاً!

* * *

والمسرحي اليوناني أسكيلوس كان يتمشى أمام بيته عندما مر أحد النسور فأسقط سلحفاة بحرية أصابت رأسه فمات فوراً.

* * *

والفيلسوف ديوجن طلب أن يدفن واقفاً على رأسه: فقد كان يرى أن الدنيا مقلوبة، وأنها سوف تنعدل يوماً ما. فإذا حدث ذلك، كان جاهزاً لاستئناف البحث عن إنسان.. وكان قد اعتاد أن يمسك مصباحاً في وضح النهار، لماذا؟

لأنه يبحث عن إنسان!

* * *

وفي يوم ٢٣ ابريل سنة ١٦١٦ توفي اثنان من العباقرة: الشاعر الإنجليزي شيكسبير والروائي الأسباني سوفانتس!

* * *

ويوم توفي د. طه حسين توفي د. حسن عثمان، وهو الرجل الذي ترجم لأول مرة «الكوميديا الإلهية» للشاعر دانته من اللغة الإيطالية القديمة إلى العربية.. ولكن أحداً لم يدر به.

* * *

ويوم اغتيال الرئيس كنيدي توفي الأديب الإنجليزي

العظيم الدوس هكسلي. ولكن أحداً لم يعرف ذلك إلا بعد شهور!

* * *

ويوم أطلق الرصاص على سعد زغلول، توفي الأديب الرومانسي لطفي المنفلوطي. ولم يمش في جنازته إلا عدد قليل من أسرته، ولا أحد من الأدباء

وفي ذلك يقول شوقي عن جنازة المنفلوطي:

اخترت يوم الهول، يوم وداع
ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدماً تشيع، أو حفاوة ساعي!

* * *

أما الشاعر الإيطالي بتراركه فقد أحس باقتراب الموت فتمدد على الفراش في يوليو سنة ١٣٤٤. وطلب من أهله أن يتركوه وحده ليموت في هدوء.. وبعد ساعات عادوا إليه ليجدوه جالساً ليعيش بعد ذلك ثلاثين عاماً!

* * *

أما الفيلسوف الأديب البريطاني بيكون فقد كان يريد أن يعرف ما الذي يفعله الجليد بأجسام الحيوانات التي توضع

فيه . . فأتى بالجليد ووضعه في فراشه ، ثم أتى بدجاجة ميتة ووضعها في الجليد . . وكان حريصاً على أن يراقب تقلبات حال الدجاجة . .

فمات من البرودة !

* * *

أما الممثل والمؤلف العظيم موليير ، فقد كان يقوم بدور البطولة في إحدى مسرحياته . . وكان عليه أن يسعل بعنف حتى ينزف الدم من صدره . . وقد فعل ذلك حتى سقط مغشياً عليه ومات . .

المسرحية كان اسمها «المريض بالوهم» !

والشاعر الألماني فون تومل ، أوصى بأن يدفن واقفاً في جوف أشجار الزيزفون . نفذوا الوصية سنة ١٨٢٤ . ثم أعادوا جذع الشجرة إلى ما كان عليه . . الشجرة ما تزال يانعة ، ولا بد أنها قد امتصت ما تحلل من جثمان الشاعر الكبير!

* * *

ولما مات الإنجليزي شيلي غرقاً ، أحرقوا جثمانه . . ولكن قلبه لم يحترق . فأعطوه إلى زوجته التي وضعته في إناء به نبيذ تحمله في كل مكان . . وكان آخر شيء رأته عندما ماتت !

* * *

وكان الأديب الأمريكي هوثون يؤمن بأن رقم ٦٤ له أثر عظيم في حياته. وكان يسجل هذا الرقم على كل كتبه.. ولما توفي كان ذلك في سنة ١٨٦٤!

* * *

ويوم ولد الأديب الأمريكي الساخر مارك توين، ظهر في السماء المذنب المشهور هالي. وعندما كبر مارك توين أعلن أنه سوف يموت يوم ظهور هذا المذنب مرة أخرى. ويقول: لأن ميلادي وظهور هذا المذنب، ليسا حدثاً عادياً.

وظهر المذنب مرة أخرى سنة ١٩١٥، ليموت مارك توين..

وفي نفس السنة مات أديب روسيا تولستوي..

* * *

أما الشاعر الروسي أسنين فقد مزق شرياناً في ذراعه، وظل يتفرج على شكل الدماء تنزف منه.. ثم نقل الدم من كفه إلى فمه.. ولما أوشك على الإغماء شنق نفسه سنة ١٩٢٥..

* * *

أما الشاعر الصيني لي ـ يوه، فقد كان يحب الشراب.. ويحب لونه في الزجاجة.. وفي الكوب وعلى خدود ونهود العذارى. وكان الامبراطور يعلم ذلك.. وكان يجيبه إلى

طلباته . فقد أتى له بعشرين فتاة جميلة . . وراح الشاعر يمتص النبيذ من أصابع أيديهن وأقدامهن . .

وقد أحبه الامبراطور ، وأصدر قراراً بأن للشاعر الحق في أن يأكل ويشرب في أي مكان . .

وفي إحدى الليالي شرب الشاعر كثيراً . واستقل زورقاً وذهب بعيداً في البحر . . ولما رأى القمر على سطح الماء ، انحنى عليه يقبله . . فغرق ومات!

وهو ما يحاوله كل الشعراء في كل العصور ، دون أن يموتوا . .

* * *

أما أخر خطاب تلقيته من الشاعر الأرجنتيني فيقول فيه :
صديقي أنت لن تمشي في جنازتي حتى لو أردت!

وقد صدق في هذه النبوءة أيضاً!

. . كل حاجة ولا حاجة : نصيحة !

منذ أيام نشرت وصية الكاتب الإنجليزي نويل كوارد (٧٣ سنة) وقد طلب من أصدقائه أن يكتبوا على قبره هذه العبارة: عاش ومات. . ولا حاجة!.

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذي كان يقصده. هل يريد أن يقول أنه عاش ومات وليس في حاجة إلى أن يعرف الناس ذلك. . أو ليس في حاجة أن يعرف الناس أكثر مما عرفوا. . هل يريد أن يقول أنه «ولا حاجة» أي لا شيء حي ولا شيء ميت!

إنه بهذه العبارة يدخل في السلسلة المعروفة لأدباء وعظماء كثيرين قرروا أن يتركوا على قبورهم عبارات ذات معنى كأن الذين ماتوا أرادوا أن يضيفوا ولو جملة واحدة إلى كل ما قالوه وكتبوه هذه الجملة لا يراها إلا من يزورهم في قبورهم. . كأن الميت أراد أن يترك وراءه شيئاً. . شيئاً ما، يضحك الناس إذا رأوه، أو يجعلهم يفكرون فيه كأنه ما يزال يتحدث إليهم. .

فعندما مات الزعيم الهندي غاندي طلب أن يدفن في نهاية شبه القارة الهندية عند ملتقى البحور الثلاثة في أقصى

الجنوب . . وأوصى بأن يوضع الرماد الذي تبقى من جسمه الضئيل في نهاية الأراضي الهندية . . كأنه أراد أن يضيف إلى بلاده ولو حفنة تراب ولم يطلب غاندي شيئاً يكتبونه على قبره وإنما اختار هذه الكلمات من ملايين الذرات التي تبقت من لحمه ودمه!

واختار الكاتب الإنجليزي نويل كوارد عبارات كتبت على قبور الآخرين وطلب إلى من يعنيه الأمر أن يكتبها على قبره - قبره هو . .

مثلاً : التراب تحتي والتراب فوقي لم أحقق في هذه الدنيا أعمالاً جليلة ، ولكني جاهدت!

* * *

لا تحزن لأنك لم تصل إلى كل ما تريد، ولكن افرح بما عندك . . فأنا مت هنا، لأنني لم استطع أن أبقى طويلاً هناك!

* * *

هنا أنام تحت تراب ثقيل ، فقد كنت ثقيلاً على التراب!

* * *

أما الامبراطور فريدريش الأكبر فطلب أن تنقش على قبره هذه العبارة : عندما أكون تحت التراب فلا عذاب!

* * *

يؤسفني أنني لا أستطيع أن أعتذر عن التراب الذي علق بقدميك!

* * *

أحد القواد العسكريين أوصى بهذه العبارة: قل لهم أنني مت تنفيذاً لأوامرهم!

* * *

دفنوه.. نسوه!

* * *

.. هنا حيث لا احتقار لأحد أو من أحد!

أنا قورش العظيم ملك الفرس لا تحسدوا هذه الأرض الصغيرة التي انحشرت فيها!

* * *

وعلى قبر الامبراطورة ماريا تريزا: من الناحية الجنسية: امرأة.. من الناحية العقلية: رجل!

* * *

كتب أحد اللصوص: يا من تقرأ هذه السطور فإن عيني على جيبك إن كنت رجلاً، وعلى قلبك إن كنت امرأة!

* * *

وقد توفي نويل كوارد في مارس الماضي وهو مجموعة من المواهب الفنية: فهو روائي ومؤلف مسرحي ومن أشهر مؤلفي الأغاني والموسيقى. وهو ممثل لمعظم أعماله المسرحية وهو مخرج ومنتج.. وهو قبل ذلك أعزب عن إصرار.

وقد بدأ حياته من قاع المجتمع الإنجليزي فقيراً وابن فقير. ولذلك فألوانه سوداء. وسخريته موجعة. وهو أقدر الكتّاب الإنجليز على أن يضحكك ويوجعك في نفس الوقت. وهو الذي يقول: لا أعتبر نفسي من مؤلفي الضحك.. وإنما أنا من الذين يمزقون البطون ويحرقون العيون ويوجعون القلب من شدة الضحك!

وهو لم يبالغ في وصف نفسه..

ويمكن أن تضيف إلى الضحك عبارات نابية وأحياناً «مواقف قذرة». وهو لا يضيع هذه الفرصة دون أن يقول: إذا نظرت في المرآة ورأيت قرداً، فلا تلعن المرآة!

وقد بدأ كوارد يمثل في نفس الوقت الذي تعلم فيه الكلام. فهو ممثل من يومه. أو بعبارة أخرى: لقد تعلم أن يكذب قبل أن يتعلم الصدق، أو ما هو الفرق بين الكذب والصدق.. أو بين الواقع والخيال.. أو بين الذي على لسانه وبين الذي على قلم غيره من الناس..

ولسبب لا يعرفه سقط من فوق إحدى الأشجار. وانكسرت ساقه. ولكن سرعان ما اعتدلت الساق.. وفي سنة ١٩١٤ التحق بالجيش.. ولكنه سقط مرة أخرى من فوق إحدى العربات وأطلق الجيش سراحه لأنه غير لائق جسمياً. ولكن كوارد انضم إلى إحدى الفرق المسرحية التي ترفه عن الجنود ثم ترك الخدمة العسكرية نهائياً، مع عظيم الامتنان لروحه الفنية وموهبته على تفجير الضحك بأدائه أو بقلمه..

وعاش كوارد على أعصابه. وعلى الصداقات الطويلة. وهو صاحب العبارة المشهورة التي تقول:

ما الذي يحدث من امرأة واحدة أصبحت زوجتك؟ أنت لا تستطيع أن تجد فيها الصديقة والعشيقة والزميلة فأنا رجل أهوى الكثير من الصفات جداً. ولا يمكن أن أجدها في امرأة واحدة ولا في رجل واحد ولا في مجتمع واحد.. ولا دولة واحدة.. أنا إنجليزي قررت أن أعيش وأموت في سويسرا.. وأستريح من الناس مع أناس آخرين في جامايكا.. لا يكفيني إلا الكثير.. ولا يملأ عيني ومعدتي وقلبي وجيوبي إلا الكثير جداً.. وليست هذه سفالة رجل.. وإنما هي حقيقة كل رجل. ولست مسؤولاً عن أية خلافات تقع بين رجل وامرأة.. فهذا رأيي عندما أواجه الناس، وهذا رأي كل رجل عندما يكون مع نفسه!

ولذلك نرى في الوصية التي نشرت أخيراً، أنه قد وزع

كل ما يملك على أكثر من أربعين من الرجال والنساء . . أما بيوته الأربعة فقد أعطاها لاثنين . أحدهما كول لسلي (٥٩ سنة) وكان خادمه لمدة ٣٧ عاماً . أعطاه بيتاً في سويسرا وبيتاً آخر في جامايكا . . وأما المطرب الممثل جراهام بن (٤٥ سنة) فقد أعطاه بيتاً في سويسرا وبيتاً في جامايكا . . وأما جيرانه في سويسرا فقد أوصى لكل واحد بألف جنيه لما سببه لهم من مضايقات في بعض الأحيان. هذه المضايقات كانت على الشكل الآتي : كثيراً ما صحا الجيران ليجدوا رجلاً قد ارتدى ملابس سوداء وجلس على سور الحديقة . . فإذا صرخ الناس قفز لهم معتذراً . أما سبب ذلك فهو يريد أن يعرف بالضبط ما الذي يقوله الناس أو يفعلونه إذا خافوا!

ثم ترك لهذين الرجلين مبلغاً يصل إلى أربعين ألفاً من الجنيهات تمكنهما من الاحتفاظ بهذه البيوت في حالة جيدة .

ثم ترك في الوصية أربعين اسماً وكتب أمام كل واحد منهم هدية . من بين هذه الاسماء : فرانك سيناترا واليزابيت تايلور ودافيد نيفين ومارلين ديتريش والممثل البريطاني الكبير جيلجود . .

وقد أوصى لكل واحد منهم بإحدى لوحاته الفنية . . اللوحات التي أهديت له من فنانين عالميين . . أما التمثال النصفي له فقد أهداه للمتحف البريطاني .

وكذلك ملابسه قد أحصاها جميعاً وأهداها لأصدقائه أيضاً.

وترك عشرات الرسائل الموجهة إلى الأصدقاء في جميع أنحاء العالم. ووافق مقدماً على بيع هذه الرسائل في مزاد علني..

وأوصى بعصاه إلى سيدة كانت قد ساعدته وهو مريض في أحد المستشفيات وقال: في داخل هذه العصا عدد لا أعرفه من الجنيهات الذهبية النادرة هي هدية لك.. وأنت حرة في أن تبيعي كل شيء!

وفي رسالة تركها للممثلة مارلين ديتريش يقول: هناك شيء غامض في الحياة الإنسانية.. وفي روح الفنان: جسمك وقلمي.. في جسمك حيوية ونضارة، لأنك تتمتعين بشباب عشرين امرأة في واحدة. وفي قلمي ضحكات عشرين فناناً وفيه مرارة مليون فقير ومريض.. فأنت شباب يملأ عيون الشباب.. أنت وأنا كلانا شاب إلى غير نهاية.. وإذا كنت قد سبقتك إلى حيث أنا، فلأنني سوف أعيش بعدك أضعاف عمري وعمرك.. معذرة يا أصغر وأجمل من عانق خيالي!

وقد ترك كوارد حقوق نشر وترجمة كل أعماله الأدبية إلى عدد من الأصدقاء أيضاً.

حتى قبره قد أوصى به إلى خادمه الذي عاش رفيقاً له نصف عمره. وكتب له يقول: لن تتعب بعد اليوم فلا زائر ولا

مرض ولا حاجة . . وإياك أن تبكي على الذين أمامك وتحت قدميك إلا إذا كان البكاء يريحك . . وهو شيء يريح . . فابك يطل عمرك ـ وهذه حقيقة لم أعرفها إلا أخيراً جداً عندما كنت مريضاً. فقد أطلت النظر إلى زواري . . وتمنيت أن أبكي عليهم . . وبكيت وشعرت أن الدموع هي أعظم دواء لم يصفه طبيب لأحد . . ابك إذا كان ذلك يجعل فراقنا أطول . وحاول أن تجعله أطول . . فليس هنا تحت قدميك شيء يستحق أن تتعجل رؤيته!

* * *

وعندما كان النقاد يسألون نويل كوارد عن أهم أعماله المسرحية كان يشير إلى مسرحية «أكثر من حياة خاصة» . هذه المسرحية قام هو ببطولتها أيضاً. فقد ألفها سنة ١٩٣٠ وظهرت على مسارح لندن وباريس في ذلك الوقت. وهي تحكي قصة وقعت أحداثها في فرنسا . . أو يمكن أن تقع أحداثها في أي مكان من العالم . . إنها قصة رجل وامرأة . . تزوجا عن حب وانفصلا . . ثم استأنف كل منهما حياة جديدة . واتخذ له زوجاً. وتشاء الصدف أن يذهب الأربعة لقضاء شهر العسل في فندق واحد . . ويلتقي الزوجان القديمان ويتعاتبان. ويقرر كل منهما أنه ما يزال يحب الآخر. ويفكران في الهزب إلى بعيد. ويهربان ويعودان . وكل واحد له مشكلة مع زوجه . وينكشف أمرهما . وتدور

المعارك بين الجميع . . ولكن الزوجين الأولين العاشقين يخرجان من الفندق بينما الزوجان الآخران قد وقعا في شبكة من العار والخجل والندم!

* * *

والمعنى الذي يريد كوارد أن يضغط عليه وبلسانه: لا توجد هذه الفواصل القاطعة بين الخير والشر. . ولا بين الرذيلة والفضيلة. . فكل إنسان يمكن أن يكون سافلاً إذا تغيرت ظروفه. . وهات لي أعظم الناس وأنا استطيع أن أجعله لكم أحطهم وأحقرهم. . تماماً كما يفعل الماكياج بالوجوه، من الممكن أن تفعل التجارب الإنسانية العنيفة نفس التشوهات في داخل النفس الإنسانية. . ضع أي إنسان على أرض ساخنة وتفرج عليه. . إنه مثل الذي يرقص من الألم. . هات الفيلسوف سقراط وأنا أجعله لك قرداً إفريقياً. . هات لي المليونير روتشيلد وأنا أجعله لك فقيراً هندياً. . كل ذلك سهل. . صحيح أن هناك درجات من الصبر على الألم، وهناك درجات من التضحية والاستشهاد. . ولكن كم من الناس يقدر على ذلك؟. إن القديسين والأبطال والمجانين ينفردون بأكبر نسبة بين هؤلاء القادرين على امتصاص الألم!

أما لماذا أوصى نويل كوارد بكل ما يملك لأصدقائه فلأن أحداً في الدنيا لا يستحق شيئاً منه. . أما الضرائب في

بريطانيا فقد هرب منها إلى سويسرا وليس من العدل أن يتعذب الإنسان ليلاً ونهاراً لتشاركه الدولة القليل جداً الذي يكسبه، بينما يستطيع الجزار والبقال والمهرب أن يفلت من الضرائب أما الأديب أو الفنان فلا يستطيع شيئاً من ذلك!

وهو قد أوصى بكل ما عنده لأصدقائه: لأنني عشت طول عمري أعمل من أجل الآخرين.. من أجل العلاقات الحلوة التي بين الناس.. من أجل أن أجد الصدق أحياناً، وبلا مقابل.. وقد وجدت الراحة في زيارة عابرة، ووجدتها في مكالمة تليفونية خالصة.. ووجدتها في كلابي التي ماتت.. ولو عاشت لتركت لها الكثير.. ولكن جاء موتها إهانة لي ولذكائي.. فقد كان من الواجب أن أعرف أنها سوف تموت قبلي.. ولكن يعزيني عن ذلك أنني شيعتها في جنازة فخمة وتمنيت لنفسي شيئاً من ذلك!

ولم يشأ نويل كوارد ذلك الساخر الكبير من أن يهمس في كل أذن فيقول: والآن سيداتي وسادتي.. انتهى العرض المسرحي ونزل الستار وأضيء المسرح.. وبدأ كل واحد يتعجل الخروج من الكذب الفني إلى الواقع الأليم.. سيداتي وسادتي اسمحوا لي أن أقول كلمة أخيرة بعد أن قلت كل شيء استطيعه.. استمعوا جيداً.. عندي آخر كلام.. آخر ما يخرج من فمي مرة واحدة وإلى الأبد.. تريدون أن تعرفوا ماذا قلت.. وماذا قصدت وماذا سوف يبقى بعد

ذلك . . وبصراحة ودون أن أطيل عليكم . . خذوها مني كلمة مفيدة ماذا جرى لي ولكم وسوف يجري لأي أحد . . والكلمة الباقية لي بعد ذلك هي : ولا حاجة !

. . وكانت هذه آخر أنفاسه!

إذا كانت المرأة لا تملك إلا دموعها، فإن الرجل يملك الكلام عن هذه الدموع. ولو كان الرجل يملك سلاحاً أقوى من ذلك ضد المرأة لأطلقه عليها، ولكن من حين إلى آخر يصدر كتاب يضم عبارات شائكة ويحاول أن يلقيها تحت فستان المرأة. . أو تحت جلدها. . ولكن الذي يدهش الرجل وغيظه أيضاً، أن المرأة تشتري هذا الكتاب. . ويكون الإقبال على الكتاب تحية من المرأة لكل من يجرحها. . وفي نفس الوقت يكون دليلاً جديداً على أن المرأة تشجع الرجل على أن يقول. . لأنه مثلها لا يملك إلا أن يقول. . ولكن النصر في النهاية تفوز به المرأة.

وأحدث كتاب صدر للكاتب الأمريكي شين كنان. الكتاب عنوانه: «لعبة الحب». هذا الرجل من أشهر «العزاب» في أمريكا. يقول المؤلف: لم أتزوج إلا منذ أيام. بعد أربعين عاماً من الحياة الجميلة: طائراً خفيفاً وصديقاً لعشرات الفتيات. ويبدو أن هؤلاء الفتيات قد دربنني لكي أكون زوجاً صالحاً. أما هذه الصفحات التي أنشرها فليست إلا أوراقاً قديمة في أحد أدراج مكتبي. . لم

تشأ زوجتي أن تقرأها . . إنها امرأة ذكية . دعوني أقل إنها خبيثة جداً . . لأنها تعلم أن هذه الكلمات هي آخر أنفاسي . . !

ويقول المؤلف: لا بد أنها غريزة في أن يجد الإنسان أنواعاً من الصدف أو الظلط الملون أو الأشواك على الأرض . . فيجمعها ويحاول أن يصنع منها عقداً ـ في أواسط أفريقيا يفعلون ذلك ـ ثم يعلقها في رقبة من يحب . . أما أنا فأعرف أين أضعها . . أما أنت فحر في اختيار العنق الذي تلف حوله هذه الأشواك . . أو أنت حر في اختيار الشفتين المصبوغتين اللتين تلعنانك بإخلاص . . أما أنا فأعرف من الذي سوف يلعنني بعد أن أفرغ من هذا الكتاب . . إنه أنت!

* * *

لا شيء أعذب من الحب . . أي أكثر منه عذوبة وعذاباً!

* * *

الحب سحر يلخبط عقل إنسان من أجل إنسان آخر

* * *

من النظرة الأولى يولد الحب ، وفي الثانية يموت!

* * *

الحب مرحلة من حياة الرجل ، ولكنه كل حياة المرأة!

* * *

كل الناس يحبون المحبين!

* * *

الحب الحقيقي لا يظهر في الصفحات الأولى من الصحف!

* * *

إن كان قصراً أو سجناً لا يهم: فالمحبون يجعلون كل الأماكن متشابهة!

* * *

إذا كانت الحياة زهرة فالحب رحيقها!

* * *

الحب: فترة استراحة لذيذة بين رؤيتك لفتاة جميلة واكتشافك أنها قبيحة!

* * *

الحب صياد: ولكنه أعمى!

* * *

بلغة الأطباء: الحب مرض تحت الجلد.. أو هو تخدير كامل للجهاز العصبي!

* * *

إذا انتصر خيالك على عقلك: فأنت في حالة حب!

* * *

الحب رد فعل اليأس!

* * *

اعطيه صورتك الجميلة، واعطها أنت صورتك الجميلة: وبعد ذلك يجيء الوهم الجميل!

* * *

لا علاقة للحب بالزواج. فأنت تتزوج مرة وتحب ألف مرة. فالزواج قانون والحب غريزة!

* * *

لا يصبح الحب ساحراً، إذا عرفه الناس!

* * *

طبيعة المرأة: أن تحبك عندما لا تحبها، وألا تحبك إذا أحببتها!

* * *

إذا أردت من امرأة أن تحبك كن مجنوناً. فالمرأة لا تحب العقلاء!

* * *

من الضروري أن تكون حريصاً . . إلا في الحب ، فإن الحرص يقتل الحب!

* * *

إنني أفضل هذا الرجل لأنه كذا وكذا . . وإنني أحب هذا الرجل رغم أنه كذا وكذا!

* * *

خير لي أن يكون حبي فاشلاً ، من أن يكون فشلي بلا حب!

* * *

كل ما تريد أنت هو الحب : غلط! . . كل ما يريده الحب هو أنت : صح!

* * *

تقدمت للزواج من فتاة وكنت في الرابعة من عمري ، ثم قابلتها بعد عشرين عاماً ، فهنأت نفسي على ذوقي الجميل!

* * *

الرجل يخطف القبلة الأولى . . ويتوسل من أجل الثانية . . ويطلب الثالثة . . ويأخذ الرابعة وينتظر الخامسة . . والباقي يجيء من تلقاء نفسه!

* * *

المرأة لا تزال تذكر القبلة الأولى، بينما ينسى الرجل القبلة الأخيرة!

* * *

هذه الأيام: يعيش الأعزب كالمتزوج.. ويعيش المتزوج كالأعزب!

* * *

الأعزب هو الرجل الذي ينظر أمامه قبل أن يخطو.. ثم يقف في مكانه!

* * *

يجب أن تشعر المرأة بالامتنان لكل هؤلاء العزاب، فلو كان الناس متزوجين جميعاً فمن أين يأتي لها العريس؟!

* * *

قررت ألا أتزوج حتى أجد المرأة المثالية. ثم وجدتها. ولكنها كانت تبحث عن الرجل المثالي!

* * *

إذا سألتك إن كنت تحب تسريحتها هذه فاحترس!.. لقد قررت أن تفاتحك في الزواج بعد ذلك!

* * *

أسعد النساء مثل أسعد الشعوب: ليس لها تاريخ!

* * *

أن تتـزوج : هذه مسألـة خطيـرة . . ألا تتـزوج : هذه أخطر!

* * *

قرأت للعالم الكبير فرويد هذه العبارة : بعد ثلاثين عامـاً من الدراسة والبحث والفحص والتأمل لم استطع أن أجـد جواباً عن هذا السؤال : بالضبط ما الذي تريده المرأة؟ !

* * *

الاشتباك في الحرب : معركة . . وفي الحبْ : استسلام!

* * *

الحب قبل الزواج : مثل مقدمة موسيقية للحن رديء!

* * *

كلما سافر إنسان وتعلم وتألم في الخارج كان ذلك أكبر دليل على أنه سوف يتزوج فتاة من أعمق أعماق الريف!

* * *

ارتفاع نسبة الزواج بين مضيفات الطيران سببه أن الرجال مربوطون في مقاعدهم!

* * *

الأذن عفيفة ولكن العين جريئة!

* * *

ـ هل تستطيع أن تغسل الأطباق؟

ـ نعم بشرط أن تجففيها!

المرأة تختار الرجل الذي يختارها!

* * *

الزواج كتاب: الفصل الأول نظمناه شعراً، أما بقية الفصول فقد كتبناها نثراً!

* * *

الرجل والمرأة يتزوجان: لأن أحداً لا يعرف ما الذي يصنعه بحياته!

* * *

الزواج هو أكبر دليل على اللقاء السعيد بعد شيء لا يمكن زحزحته، وقوة لا يمكن قهرها. !

* * *

في الزواج كما في الحروب: استخدم كل الوسائل لحقن الدماء!

* * *

لا هو جنة ولا هو نار: بين بين!

* * *

الزواج: ذكرى الحب الذي كان!

* * *

الزواج ليس كاملاً، ولن يكون.. ولكنه أجمل وأكمل العلاقات الإنسانية!

* * *

الزواج هو: أن رجلاً يبيع امرأة لرجل آخر. ولكن المرأة الآن هي التي تبيع نفسها، وإن كانت لا تسدد للرجل كل ما جاء في الفاتورة!

* * *

الزواج ينطبق عليه المثل المصري الشعبي: لاقيني ولا تغديني!

* * *

الزواج: كافتيريا يخدم فيها الإنسان نفسه. ولكنه يتطلع إلى الذي اشتراه الآخرون، ويتمنى لو كان يحصل عليه أيضاً!

الزواج اعتراف برغبة شخصية جداً!

* * *

الزواج: كالفلوس في جيبك.. ولكن سعرها في النازل دائماً!

* * *

الزواج كورقة اليانصيب.. ولكنك لا تستطيع أن تمزق الورقة الخاسرة!

* * *

الزواج معجزة تحول القبلة إلى واجب، والحياة إلى عيشة والسلام!

* * *

كل امرأة: أم في الصميم.. وكل رجل: أعزب في الصميم!

* * *

كثيرون يقولون: كان نجاحي بسبب زوجتي الأولى.. وكانت زوجتي الثانية بسبب نجاحي!

* * *

خير لك أن تحب زوجتك من أن لا تحب مطلقاً!

* * *

زوجي لا يعاكس امرأة أخرى: إنه عاقل.. رقيق.. مهذب وعجوز أيضاً!

* * *

الزوجة المثالية لا تكون إلا إذا كان زوجها مثالياً!

* * *

لا تنجر وراء المرأة ولا الأتوبيس: ستكون هناك كثيرات!

* * *

مع رجل تحبه كل النساء: إنها في حالة شك.. ومع رجل تكرهه كل النساء: أنت تعيسة!

* * *

بعد الثلاثين تكون لك أفكار عن المرأة، قبل الثلاثين تكون عندك مشاعر!

* * *

المرأة انتصار للمادة على العقل، والرجل انتصار للعقل على الأخلاق!

* * *

في جلسة النساء أحب جمالهن وأناقتهن وزينتهن.. وصحتهن!

أحب شاعرية الرجل، ولا أحب الشعراء!

* * *

لم أسمع عن فتاة وقعت في غرام شاب فقير!

* * *

لا أحب الرجل الذي استطلفه، ولا أستلطف الرجل الذي أحبه!

* * *

إذا رجل أتى لزوجته بهدية من غير سبب، فلأن هناك سبباً!

* * *

نصيحة امرأة تزوجت غنياً ثم تزوجت رجلاً مشهوراً ثم تزوجت أحد رجال الدين: اجعلي زوجك في حالة شك دائم!

* * *

وجه المرأة رأسمالها: ولكن الأرباح تعود على بقية الجسم!

* * *

المصائب مثل الجنس: إذا تحدثت عنها كثيراً، فلن يحدث شيء بعد ذلك!

العشرة الطويلة تلد البرودة والأطفال!

* * *

أول سؤال يجب أن يخطر على بالك إذا قابلت أرملة مرحة: ولكن لماذا أنت مرحة؟

* * *

المرأة تمر بست مراحل من عمرها: طفلة وطفلة صغيرة وآنسة وسيدة شابة وسيدة شابة وسيدة شابة!

* * *

تحتاج الأم إلى عشرين عاماً لتجعل من طفلها رجلاً عاقلاً، وتحتاج امرأة أخرى إلى عشرين دقيقة لتجعل منه مغفلاً!

* * *

إن الرجل وزوجته لا يعيشان معاً: إنهما يتناولان طعام الإفطار معاً، ويتناولان الغداء والعشاء معاً.. ثم ينامان في نفس الغرفة. أما الرجل الذي يشعر بالإلفة مع زوجته، كما يشعر القاضي وكاتب الجلسة، ورئيس الوزراء وزعيم المعارضة، فهذه حالة نادرة!

مقشة الحكيم
وماعـز غاندي
وبسكليت تولستوي
. . والذين لا يتعلمون ولا يعملون في مصر!

المخترع الأمريكي فورد كان يتباهى بهذه الحكاية. ذهب أحد الأمريكيين يسأل عنه فلم يجده.

قال: أين السيد فورد؟

- في إيطاليا.

- وأين نائبه.

- في فرنسا . .

- وأين المدير العام؟

- في إسبانيا.

- وأين نائبه.

- في البرازيل . .

- وأين سكرتير السيد فورد؟

- في إجازة.

ـ وأين سكرتيرة السيد نائبه؟

ـ في شهر العسل .

ـ إذن فالشركة في إجازة؟

ـ بل تعمل .

ـ بغير هؤلاء جميعاً؟

ـ طبعاً . فقد أصبحت ورشة السيد فورد مؤسسة صناعية كبرى تمشي وفقاً لقواعد مضبوطة .

ثم عاد هذا الرجل يسأل عن كل هؤلاء فقيل له : إنهم جميعاً موجودون هذه المرة . فسأل إن كان في استطاعته أن يلقاهم . فقيل له ليس ممكناً . فالعمال في إجازة والمديرون يعملون .

وسأل الرجل : إذن كيف أراهم . . أو كيف يراهم أي إنسان؟ فقيل : إن كان من رجال الأعمال فمن الممكن أن يراهم في أي وقت . ولكنك أنت تستطيع أن تراهم في بيوتهم .

ولم يفهم الرجل . وعاد يسأل : ولكن لماذا؟

فقيل لأنك لست من رجال الأعمال! ففي يدك طفل صغير! . . وسلة فاكهة وقد خطر لك أن تلمس بنفسك الأسباب التي أدت إلى نجاح هذه المؤسسة . وهي قصة

طويلة يمكن أن يرويها لك أي واحد منهم على راحته في بيته!!

أما المعنى فهو الذي كتبه أيضاً المخترع الأمريكي فورد: هناك نوعان من الناس: أناس يعملون وأناس يجدون متعة في تعطيل الآخرين عن العمل.

أو بعبارة أخرى: مهم جداً أن تعمل، أكثر أهمية ألا يمنعك أحد عن ذلك.

ونحن في مصر نحتاج إلى من يضربنا على أيدينا لكي نعرف كيف نعمل ونتعلم.. وكيف نأكل أيضاً. وبين العمل والأكل كيف نغسل أيدينا وننظف البيت والمكتب والشارع.. والنفس أيضاً!

ومنذ أيام ما شاء الله، نشرت الصحف عن عدد عمال مصر: ١٢ مليوناً ـ صدق أو لا تصدق. أما أنا فلا أصدق. ولا حتى خمسة ملايين ولا مليون واحد يعملون. وتستطيع أن تنتقل بين مكاتب المؤسسة التي تعمل فيها وبعد ذلك أكتب اسماء الذين يعملون بإخلاص. سوف تجد عدداً قليلاً. فهذا القليل هو الذي تقوم عليه الدولة وكل مؤسساتها. وهم الذين يتعبون من أجل أناس لا يتعبون لأنهم لا يعملون.. ولا يجدون من يقول لهم: حرام دينياً، عار أخلاقياً، خيانة وطنياً، بلطجة وظيفياً. ولكن هؤلاء الذين يعملون عندهم

حجة قوية وهي: إن في مصر أناساً يكسبون ولا يعملون، وأناساً يعملون ولا يكسبون.

وإنهم النوع الثالث الذي لا يعمل ولا يكسب وإنهم أغلبية.

وإذا أنت رأيت أناساً كثيرين تظهر على وجوههم الجدية والمسؤولية فجأة، ثم يخرجون أوراقاً وأقلاماً من جيوبهم، فليسوا شعراء غنائيين هبط عليهم الوحي فجأة، ولا هم عساكر مرور قد رأوا سيارة مخالفة فسجلوا أرقامها للتبليغ عنها، لأنهم لا يستطيعون أن يسكتوا على الخطأ لأن الساكت عن الخطأ شيطان أخرس: أبداً وإنما هم من هواة الطب. وإنهم سوف يكتبون روشتة لشفاء مصر من كل أمراضها. ومن أمراض مصر أن كل أبنائها يرتدون بلاطي الأطباء.. أطباء بشريون وأطباء سياسيون. وكلهم قادرون على تشخيص دائها وصرف دوائها واليقين من شفائها.

وليس من بين هؤلاء الأطباء واحد يقول وهو ينظر في المرآة: بل أنا مرض مصر. لأنني لا أعمل وليس في نيتي ذلك. ونحن لم نشعر بعد بالخطر الحقيقي الذي سوف يظهر عندما تصب الكليات والمعاهد في الشوارع بالخريجين بمئات الألوف الذين لم يتعلموا شيئاً نافعاً، وفي نفس الوقت يريدون أن يعملوا ـ وليس بين الطلبة والأساتذة والآباء واحد لا يشكو من أنه دخل وخرج من الجامعة يا مولاي كما خلقتني: عريان ملط من المعلومات ومن الفهم ومن التدريب.

على أي شيء نافع. واللوم يقع على المدرس وعلى البرامج وعلى سياسة التعليم النظري والعملي في مصر. . وعلى الإنتاج التعليمي والتربوي بالجملة، مثل الأكواب والفناجيل والبلاليص. والأساتذة الكبار الذين تعلموا في الخارج يعرفون أنه غير مسموح لأي خريج في الجامعة أن يمارس الذي تعلمه دون فترة تدريب لابد. ولا تدريب عندنا على أي شيء. والآن، وأخيراً جداً نطالب بضرورة التدريب الهندسي والزراعي والطبي.

أهم ما ينقص العلم والعمل في مصر: الإدارة والإدارة. . ألف مرة!

هل أضرب لك مثلاً؟ اذهب إلى بنك مصري وإلى أي بنك أجنبي في مصر. . والاثنان متجاوران في نفس الشارع وفي نفس البلد ويتعاملان مع نفس العملاء ويتعرضان لكل عيوب الإدارة الحكومية والتعليم الجامعي واللامسؤولية. فماذا تجد؟ سوف تجد أن البنك المصري، فعلاً مصري أما البنك الأمريكي أو الفرنسي أو العربي الأجنبي - فليس مصرياً، رغم أن كل من تقع عليه عينك من الموظفين والعملاء، مصريون جميعاً، فما معنى ذلك؟ معناه: أن هنا إدارة صارمة وأن هناك إدارة متراخية.

ومن المؤكد أن علوم الإدارة هي التي تنقص مصر: إدارة الدكان والبيت والمؤسسة وإدارة الدولة أيضاً. . وعيوب

مصر هي عيوب مفهـوم الإدارة العلمية. ولا تزال الحداقـة والفهلوة والاستخفـاف هي من صميم القواعـد الإدارية في مصر مثلاً: كيف تفسر إذا كان المصعـد يتسـع لعشـرة فقـط فيدخله عشرون كل يوم؟ ولا نتوقع أن يسقط أو يتجاوز عمره الافتراضي في نصف المـدة أو ربعهـا وتقف المصاعـد في البيت والمؤسسة والـوزارة ونحـن نعـرف السبب فإذا أعيد تشغيلها عاد العشرون والثلاثـون إلـى التزاحـم فمـا فائـدة العلم؟ وما فائدة التجربة؟ وما معنى المسؤولية الجمـاعية؟ وما معنى الإدارة؟ وما مدى احترامنا لأي شيء؟

والذي يحـدث في المصعـد يحـدث في الأتـوبيس وفـي أجهـزة البيت ويحـدث في الجهـاز الإنسانـي في جسمـك وقدرتك على العمل والراحة من العمل.

ألم يكن من الواجب علينا أن نتوقف حداداً على أنفسنـا عندما نعرف أن عدد العمال ١٢ مليوناً ولا نرى أثراً لذلك في حياتنا؟

ألم يكن من الواجب أن نلطم الخدين بقطعتين من بلاط الحمام ونحـن نقـرأ أن الهنـد (٧٠٠ مليون) استطاعـت أن تحقق الإكتفاء الذاتي في القمح وأن السعودية تصدر ما فاض عن حاجاتها من القمح وأنها قد بعثت لنا بشيء من ذلك؟ من المؤكد أن الهند لم تلجأ بالمعجزات أو بما لديها من الحواة - مليون واحد يحترفون صناعة السحر - وإنما بمـا عندهـا من

علماء وتخطيط وتعبئة جادة لطاقاتها العاملة. فكان لها ما أرادت. أما نحن فنستورد حتى الماء الذي نشربه من لبنان التي تحارب منذ عشر سنوات - أرجو قراءة هذه العبارة مرة أخرى.. وأن تعطي لنفسك بعض الوقت لكي تندهش على ما صار إليه حال أبناء النيل الذي يتدفق تحت أرجلنا من ألوف السنين - لا جف النيل ولا ارتوينا ولا اتسعت الأرض الزراعية.

أما طعام المصريين فدليل على الفوضى والجهل والانتحار الشخصي والقومي. انظر إلى طعامك - وأنا اتحدث إلى أبناء الطبقة المتوسطة الذين يأكلون اللحم ويصرون على أن يجعلوه طعاماً يومياً. ويتمسكون بالأرز والمكرونة وكثير من الخبز.. لو أن واحداً لديه معلومات بسيطة عن مكونات هذا الطعام لحذف منه الكثير واكتفى ببعض البروتينات وبعض النشويات. ولكن ليس لدينا وعي غذائي. وليس لدينا وعي قومي أيضاً ولا نحن حريصون على أن نعرف كم تدفع الدولة من أجل هذه الوجبة الواحدة التي تكلفنا كثيراً جداً مثلاً: كم يتكلف طبق السلطة الذي يكفي أربعة أشخاص إنه يعادل مرتب موظف بالثانوية العامة من عشرين عاماً.

ولا أتحدث عن سخافة وسفاهة ما نأكله في الأعياد - فذلك هو الجنون الوطني.. جنون أن نحرص على الذي

نأكله، وأكثر جنوناً أن تستجيب الدولة لذلك فالكعك والجوز واللوز في بلد فقير يعيش بالدين ذي الفوائد المركبة المتراكمة؟ وما المنطق في أن نأكل كل هذا الطعام الذي لم نبذل من أجله عرقاً كيف نبلع اللقمة التي نشتريها من الهند ونتلقاها من السعودية وتدمى لها أقدامنا في أستراليا وأيدينا في أمريكا؟ أين العار أين الشعور بالهوان؟

وإذا جاء الضيوف وكان عددهم عشرة فالطعام يجب أن يكفي لعشرين وثلاثين ـ إظهاراً للكرم والسخاء والقدرة المالية والمكانة الاجتماعية. ومع الأكل الوفير تظهر الأطباق والشوك والسكاكين التي أعددناها للضيوف فقط. ألف حساب لما يقوله الضيوف عنا وألف ألف لما يقوله الأجانب والسياح عن بلادنا؟

وأكثر هذا الطعام إما أن نأكله على أيام ذلك. . أو نلقي به في الزبالة ـ أكثرنا يفعل ذلك ـ وهي سفاهة عامة. ومن الغريب أننا في جلساتنا نتندر بما يفعله الأجانب في بيوتهم نقول أننا نجلس إلى المائدة فيجد كل واحد منا قطعة لحم واحدة وقطعة خبز واحدة وتفاحة واحدة وخضاراً مسلوقاً ونهاية الطعام تكون الأطباق ثم نحملها إلى المطبخ أو نساعد في غسلها ـ إنهم يفعلون ذلك. وهو بالضبط ما لا نفعله.

ومن النوادر التي نرويها لأنفسنا عن بعض الأحاديث

النبوية أن رجلاً استضاف صديقاً له وأجلسه إلى المائدة فوجده قد «مسح» كل الأطباق فقال له صاحب البيت: قال ﷺ إذا أكلتم فافضلوا ـ أي أتركوا بعض الطعام.

فرد عليه الضيف: بل قال ﷺ: الإناء يستغفر لمن يلعقه.

وإذا بسيدة البيت ترفع بالصوت قائلة: يا دهوتي لقد مات أولادي بين حديثين شريفين.

والحديثان مكذوبان غير شريفين. فأحدهما يقول يجب أن تترك بعض الطعام والآخر يقول: ولا لقمة.

وكلاهما من الناحية العملية خاطىء: لأن المهم أن تقدم الطعام الذي يكفي بالضبط للضيوف وأهل البيت. فلا يبقى شيء. لأن الذي يبقى يدل على سوء التقدير.

وكان الأستاذ العقاد يسخر من كل واحد منا إذا شرب كوب الليمون ثم ترك به شيئاً.

ويسأل: هل معدتك لا تتسع لكوب؟ إن كانت تتسع فلماذا لا تشربه كله؟.. وإن كانت لا تتسع فلماذا لم تطلب من الخادم أن يأتي لك بنصف كوب أو ربع كوب.. وإن كان ترك القليل في الكوب يدل على الشياكة، أو يدل على أنك شبعان ولست في حاجة إليه، فلماذا لا تشرب مطلقاً لماذا تتوهم أن هذا سوف يغضبني. أي أن الإنسان يجب أن يشرب ويأكل بالضبط ما يكفيه ـ لا زيادة ولا نقص.. ولكننا

في مصر، وفي الشرق أيضاً، نتباهى بالكثير من الطعام والشراب، ولا نخجل من إلقاء الباقي للكلاب. . وهو ما تدفع فيه الدولة مئات الملايين، فتمد يدها شرقاً وغرباً. . ثم غرباً.

والرسول عليه الصلاة والسلام، والأطباء من بعده، ينصحوننا بأن نجعل مكاناً للطعام في المعدة ومكاناً آخر للماء ومكاناً ثالثاً للهواء - صحة واقتصاداً! ولكننا أقل الناس تمسكاً بهذه التعاليم الحكيمة.

وكل شيء في الدين يدعو إلى النظافة فأين هي نظافة الأرض واليد، وأين هي نظافة النفس والعقل، وأين هي نظافة البيت والمكتب والشارع فليس بيننا واحد لم يندهش لقذارة شوارع مصر ومدنها، ولا من يتعجب لحرصنا على القضاء على كل شيء أخضر. إما بتركه حتى يموت. أو ببناء البيوت والمصانع عليه.

آخر الضحايا حديقة حلوان التاريخية اختفت هي الأخرى تنفيذاً للمشروع الأمريكي للإسكان.

وسوف تبقى مدينة الإسماعيلية ومن بعدها مدينة المنصورة ثم الإسكندرية - رمزاً للتحدي ضد الغريزة المصرية في القضاء على كل شيء حي، تمشياً مع التقاليد الفرعونية في تقديس الموتى وتجاهل الأحياء حتى يموتوا. فإذا ماتوا بكينا عليهم وشيعناهم في جنازات مهيبة - مع أننا لو

أعطيناهم القليل من هذه الحفاوة وهم أحياء، لطالت أعمارهم وهان هوانهم على الناس.

ويوم وقف كاتبنا العظيم توفيق الحكيم وقد أمسك مقشة يكنس جانباً من أحد شوارع مصر، لم يكن هدفه من ذلك أن يكنس الشارع كله أو الحي كله. وإنما فقط أن يلفت أعيننا إلى هذه القذارة، وأن يدعونا جميعاً إلى أن نفعل شيئاً، في البيت أو في المدرسة أو المؤسسة.

واختفت صورة الحكيم مع التراب الذي أثارته المقشة. وكأنه ما وقف ولا حاول ولا لفت النظر. وكأنه أراد أن يستبدل بحماره الشهير هذه المقشة وضاع المعنى.

وفي الهند عندما قرر الزعيم غاندي أن يحارب الإنجليز وأن يقاطع بضائعهم أمسك المغزل ليصنع ثوبه. وطلب من الشعب الهندي أن يفعل ذلك ففعل وبارت البضائع الإنجليزية وتكدست في الموانىء والسفن حتى فسدت ثم أتى بماعز، وراح يحلب لبنها ويعيش عليها، اكتفاء بهذا القدر من الغذاء الطبيعي، وسار الشعب وراءه، وعندما قرر مقاطعة الملح الذي تستخرجه الشركات البريطانية من المحيط ذهب غاندي ووراءه الملايين إلى البحر وصنعوا ملحهم ـ وخربت الشركات البريطانية.

وعندما بلغ أديب روسيا العظيم تولستوي السبعين من عمره

الطويل احتفل بعيد ميلاده فركب البسكليت عشرين كيلو متراً معلناً أنه استطاع ذلك بسبب الامتناع عن أكل اللحم والأطعمة المطبوخة ورغبته في تنشيط الساقين ورحمة بالخيول ومشاركة لفقراء الفلاحين والعمال وتبعه ملايين الروس.

إلا نحن في مصر فلا القدوة نفعت ولا المعنى أقنع أحد ولا المبادرة ذهبت إلى مكانها من عقول وقلوب الناس؟

وليس من قبيل الصدفة أن المكان الذي وقف فيه توفيق الحكيم ومعه عدد من الأدباء يقودون حملة قومية للنظافة قد أقيم به الآن كوم من القمامة المكثفة تخليداً لتلك اللحظة التاريخية.

وعلماء البيئة لم يغفروا للمخترع الأمريكي العظيم أديسون أنه عندما نظر إلى أحد الوديان تساءل:

ألا ترى هذا الوادي جميلاً جداً؟

فقيل له: هو بالفعل كذلك.

فقال أديسون: سوف أجعله أكثر جمالاً عندما أنشر فيه عدداً من المصانع.

ولم يشفع له عند علماء البيئة أنه اخترع مائتين وخمسين جهازاً جديداً كان ثورة علمية. وكانت مقدمة لكل المتطورات التكنولوجية الهائلة في القرن العشرين.

ومع إنه لم يقل أنه سوف ينزع كل أشجار الوادي . . ولم يقل أنه سوف يقيم المصانع على جثث الأشجار كما نفعل نحن في مصر.

* * *

آه لو تمسكنا بحقيقة علمية واحدة وكان إصرارنا عليها، وأقسمنا ألا نلف وندور حولها؟

آه لو نصدق ما يقال لنا بإخلاص وأمانة أننا دولة فقيرة وأن مواردنا محدودة تتناقص بسبب تزايدنا وأن أكثر عملاتنا الصعبة ننفقها على ما ليس ضرورياً في الطعام والشراب وإذا لم نعقل فلن نجد الرغيف في البيت والمقعد في الأتوبيس والسرير في المستشفى والدرج في المدرسة ولا الرصيف ولا الشاطىء ولا السلاح ولا السلام . . ولا أنفسنا.

لو اتفقنا فيما بيننا ولو مرة واحدة على من هو المسلم ومن هو المؤمن ومن هو المتشدد ومن هو المتطرف ومن الذي هو عدو الشعب ومن الذي هو عدو الله؟

ولكننا ـ مع الأسف ـ نضع الناس في سلة واحدة ونلقي بهم في نار جهنم ـ أو نحاول ذلك.

وإذا نحن اختلفنا مع واحد أطلق لحيته، لأي سبب، فلماذا يكون رجل الأمن هو وحده الذي يتولى الدفاع عنا ضده.

فلمـاذا يكون الاختـلاف في الـرأي والـرؤية والنظـرة والنظرية ضد الأمـن القومـي مع أننـا سعـداء بالاختلافـات السياسية . . وأن هذه الخلافات لها أحزاب والأحزاب لهـا صحف والصحف تعلق المشانق لكل مسؤول في مصـر . . ونرى في ذلك لعباً بالنار . حتى هذا اللعب نراه مؤقتاً . فسوف يتحول اللعـب إلى جد وسـوف نستغنـي عن هذه النـار ، إكتفاء برأي الشعب وحماسة لذلك . . فلماذا ـ إذن ـ نتوهم دائماً أن هذه الخلافـات السياسية المشروعــة ، هي ضد الأمــن القومي ، وأن المخالفين المختلفين عملاء لغير مصر؟

لو أننا أمسكنا المقشة كما أمسك أبناء الصين المنشة لقتل الذباب في بلادهم ، حتى مات كل الذباب ، وكنسنا مكاتبنا ، وأمرنـا الطلبـة بأن يفعلــوا ذلك في مدارسهــم . إن دولاً كثيرة تفعل ذلك . بل إن جامعات أوروبية بعد الحرب اشترطـت على كل طالب أن يكون قد عمل في البناء وإزالـة الأتربـة عشرات الساعات . هذا شرط. تماماً مثل الخدمة العسكرية . أو الخدمة العامة عندنا ـ مع أنها لا هي خدمة ولا هي عامة . وإنما هي خدعة عامة ـ صورة من صور كذبنا علـى أنفسنـا وتسمية الأشياء بغير اسمائها ثم تصديقنا لذلك!

لو أرسينا القواعد . . واحدة واحدة فيرتفع البناء قوياً شامخـاً كما ارتفع في كل دول العالـم ولسـار كل شيء وانتظـم وأنتـج وأبدع . .

فإذا وقف أحد على باب مكاتبنا أو مصانعنا وتساءل إن كان أحد من الرؤساء هناك فليس من الضرورة أن يجده . . فكل شيء يعمل . . والرؤساء ليسوا في مواقعهم ، لأنهم أيضاً يعملون ، فلا وقت عندهم لمن يتلكأ ويتسكع على أبوابهم يريد أن يعرف . . بل عليه هو أيضاً أن يبحث له عن عمل . .

فما أكثر القوانين واللوائح والنصائح والروشتات للعمل والعلم والراحة والأكل والنوم والنظافة والتعايش بين كل الناس ، ولكن ما أقل ما نعرف . . وما أندر ما نصدق . . وما أكثر ما نبكي على أنفسنا لأننا عاجزون عن فعل شيء من أجل أجيال من بعدنا .

كل شيء يبدأ بقاعدة واحدة لها قوة الصلب وتضع ثانية فوقها وثالثة . . بصدق وإيمان .

متى؟ الآن ! وأين؟ في أي مكان !

وأن نفعل جميعاً في وقت واحد . . وإلا ـ فأنت تعرف !

خشبة المسرح «صنفرة»
تأكل وتحرق أعمال الممثلين!

إن أسرع حيوان ينقلك إلى الكمال الألم!

عبارة قالها المتصوف الألماني اكهارت. .

ولا تزال هذه العبارة جواز المرور إلى عالم الشعر والموسيقى والرسم والتمثيل.

وكما أن العذاب شرط الحب، فالفن توأم الكمال، والكمال أمل العبقرية.

والفنان يتعذب ـ هذا طبيعي. فهو أكثر الناس حساسية. والشاعر القديم عندما وصف محبوبه قال لمس الحرير يدمي بنانه. . أي أنها حساسة لدرجة أن الحرير يجرحها. وهي أيضاً من صفات الفنان. فالفنان ينظر إلى ما ينظر الناس، ويتصنت إلى ما يسمعون، ولكنه يرى ما لا يرون ويسمع ما لا يسمعون. ولذلك عرف الفنان الألم يوم الإحساس: وأدرك الجمال يوم استسلم للوجدان. وعايش العذاب يوم قرر التعبير عن الذي يتدفق في أعماقه. . ثم راح إلينا الذي عايشه بالكلمة والنغمة والخط والحركة.

ذهب أديب كبير ليتفرج على معرض الرسام ترنر. فوجد

لوحة رائعة لعاصفة. فسأله: كيف رسمت هذه العاصفة. قال له الفنان أنه لم يفعل أكثر من أنه سافر إلى شاطىء المحيط واستأجر زورقاً. وطلب من البحار أن يربطه إلى أحد الأعمدة، وهبت العاصفة. وراحت تهز الزورق بعنف، وتعلو به وتهبط، وتدفع إليه الأمواج مع البرق والرعد. قال الرسام: وعندما أحسست أنني في قلب العاصفة.. وأنني جزء منها، عدت إلى الشاطىء لأرسمها!

وبعدها لزم الفراش ودخل المستشفى ومات!

ومن أهم صفات الفنان أن يستسلم للتجربة وأن يستغرقها حتى تغرقه. فلا تكون مسافة بين الفنان وبين الحياة. فيكون هو وهي معنى واحداً..

قال شوقي يتحدث عن عذابه يوم مات أبوه:

أنا من مات ومن مات أنا ... لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة في بدن ... ثم صرنا مهجة في بدنين
ثم عدنا مهجة في بدن ... ثم نلقى جثة في كفنين
طالما قمنا إلى مائدة ... كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من إناء واحد ... وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدي في يده ... من رآنا قال عنا: أخوين
نظر الدهر إلينا نظرة ... سوت الشر فكانت نظرتين
وإذا مت وأودعت الثرى ... نلتقي في حفرة أم حفرتين؟!

ولو خيرنا الفنان بين العافية وبلادة الحس، وبين الفن والمرض والفقر، لاختار أن يكون صاحب الجلالة الفقير إلى الله والناس. . لأنه اختار عرشاً آخر يسع السماوات والأرض والنفس والعلاقات الإنسانية.

وأسطورة «فاوست» الشهيرة هي حقيقة كل فنان أيضاً. . فالعالم فاوست ساوم الشيطان: أن يعطيه مزيداً من العلم والحكمة خصماً من عمره. . أي أنه أراد أن يعرف أكثر وأن يعيش أقصر. . المهم أن يعرف، ولو كان الثمن حياته. . أي أن يعيش ويعرف ويستمتع مرتين: مرة بالإحساس ومرة بالتعبير. .

وهناك أسطورة ألمانية تقول إن (كهف العبقرية) له باب ضيق. وعند هذا الباب يجب أن يترك الإنسان جزءا من جسمه أو عقله أو قلبه. . ولم يتردد الفنانون لحظة في أن يتركوا الكثير أمام الباب. .

إن باب العبقرية مثل باب جهنم في «الكوميديا الإلهية» للشاعر دانتي. فعلى باب جهنم هذه العبارة: أيها الداخلون وراءكم كل أمل في النجاة!

وكذلك لا أمل عند الفنانين في النجاة من العذاب - ولكنهم هم الذين اختاروا العذاب. لأن الفن قد اختارهم. . والذي يفقده الفنانون عند باب الكهف، ليس

إلا الحد الأدنى من خسارته الحيوية. ولكنهم ما داموا قد اختاروا لعبة الفن، فكل لعبة لها شروط، وشروط هذه اللعبة هي العذاب.

وكل شكل من أشكال الفن له أوجاع. أخفها الأوجاع الجسمية: فنافخ الناي، يصاب بالتهاب في شفتيه ورئتيه.. وعازف العود في أصابعه، وعازف الكمان في عنقه، وعازف البيانو في ظهره وأسنانه، وعازف الطبلة في طبلة أذنيه.. والراقص في قدميه وساقيه وعموده الفقري والمطرب والممثل في حنجرته ورئتيه ومعدته وخلاياه.

وهذه هي أمراض المهنة، أو تشوهات الحرفة.. تماماً كما ينحني إلى الوراء بائع العرقسوس وإلى الأمام طبيب الأسنان، ويصبح للحداد ذراع أقوى وأغلظ من الأخرى.

ومتاعب أهل الفن ـ شعراء وموسيقيين ورسامين وممثلين وراقصين ـ عضوية أيضاً: في المعدة والأمعاء والكبد والقلب والرئتين.. وفي استطاعتك أن تستعرض الذين ماتوا في العشرين عاماً الماضية، أكثرهم مات بالسرطان!

والسبب الأول هو الإرهاق الشديد.. وسوء التغذية وارتباك الوظائف العضوية بسبب فوضى الطعام والشراب والنوم والعمل والراحة..

وكثير من الفنانين عندهم رغبة قوية في ترك العمل.

ولكنهم لا يجدون الشجاعة. ولذلك فعندهم رغبة عميقة في الانتحار. ليموتوا وهم يعملون. ومن مظاهر الانتحار: مواصلة العمل.. أي مواصلة التعب.. وتعاطي المهدئات والمنبهات. أي اللجوء إلى الراحة الإجبارية أو النشاط الزائف.

ومن مظاهر الانتحار: الاستشهاد.. فالفنان قد استراح إلى عبارة تقول: إنه يفضل أن يموت واقفاً على أن يعيش نائماً.. وأنه يفضل خشبة المسرح، على خشبة الحانوتي.. أو أنه يفضل أن ينسج المتفرجون له كفناً من رموش عيونهم، وأن تكون جنازته تصفيقاً يستمع إلى لحظات منه.. فكأن الفنان قد اختار العذاب بكل أشكاله الجسمية والعضوية والنفسية ولا يريد أن يخفف عن نفسه. وفي عصور الرومانسية في أوروبا كان الشاعر والموسيقار ينزف دماً في الطريق وفي الحفلات.. وكأن الناس يرون ذلك طبيعياً: إنه فنان.. إنه حساس.. إن العناية الإلهية قد اختارته لهذه الرسالة المقدسة.. التي يجب أن يراق على جوانبها الدم.. ولم يكن الطب قد تقدم ليدرك هؤلاء العباقرة. ولو تقدم لرفضوه..

وهناك عبارة عربية قديمة تقول: من تقدم تقاي الدم ـ أي من يريد أن يتقدم لا بد أن ينزف الدم.

فمات صغيراً دون الثلاثين عباقرة من مثل الموسيقيين: موتسارت وشوبرت وبلليني وبرسيل وجرشوين.. وشعراء

من مثـل: شيللي وكيتسي ولرمنتـوف وتوفـالسي ورامبـو ولوترياموِن وبيرون وبروك وغيرهم . .

وكان الموسيقـار شوبـان عاشقـاً للأديبـة جورج صانـد ـ واحداً بين كثيرين معاصرين ـ يقول في أيامـه الأخيرة وهـو يبصق دماً: كانت جورج صاند تقول لي: لن تموت إلا بـين ذراعي . . فأين هي وأين ذراعاها . . إنها تحتضن رجلاً آخر تنتظر وفاته ، لتكون في أحضان رجل آخر.

وكان الرجل الآخر هو الشاعر الفـرد دي ميسيه ـ مات في الثلاثين!

والموسيقار مندلسون كان رقيقاً حالماً نصف مجنون ، عندما فوجيء بوفاة أخته أحب الناس إليه ، ظل يسعل وينزف حتى مات بعد ذلك بشهور!

وأكثر الناس حساسية أكثرهم مللاً ـ فهم ينشدون الجديد في النـاس والأشياء والعلاقـات . والملل يدفعهـم إلى التغيير والتمرد والتطرف والعنف . والرغبة في التغيير العنيف هي التي جعلت عدداً كبيراً منهم يسرف في الجنس والخمر والمخدرات والخناقات أيضاً .

وتكون الخمر والمخدرات والجنس نوعاً من الهرب الـذي يضاعف متاعبهم الجسمية والنفسية ويقصف أعمارهم .

وأكثر الناس مللاً: ممثلو المسرح . فهم يظهـرون كل ليلـة

ولشهور وسنوات، يكررون نفس الكلام والحركات والغضب والابتسام. ولذلك كان الخروج على النص نوعاً من التمرد. . نوعاً من الضيق ـ ضيق الإنسان بنفسه عندما يتحول إلى بغبغان. . إلى إنسان آلي، وقد وضعوا له برنامجاً: لكلماته وحركاته ودفعوه على المسرح ليقول بالضبط ما كتبه المؤلف، ويتحرك بالضبط ما أراده المخرج، ويستجيب بالضبط إلى ما يفعله الجمهور. . وكل ليلة!

ولا يزال الفنان يفضل الهواء الخانق في المسرح ووراء الستار، على الهواء الطلق. . ففي المسرح هو الفنان الأوحد، وفي الشارع يكون واحداً من ملايين.

وحياة الفنان المسرحي حياة قائمة على الكذب والازدواج. فهو يظهر في ثوب من صنع المؤلف والمخرج. ويندمج في الدور ويهز الناس ويدفعهم إلى البكاء والتصفيق. . ونحن نعلم أن الممثل يكذب، فالذي نراه أمامنا لم يحدث. ولكن براعة الممثل هي أن يجعلنا نشعر كأنه حدث. . وكثيراً ما يندمج الممثل في دوره المسرحي الكاذب، فيستولي على حياته. وتكون الحياة استمرار للمسرح. فلا المسرح حياة، ولا الحياة مسرح. وهو يحترق بين الاثنين. .

فحياة الممثل المسرحي حياة مشروطة: أي أنه يعيش وسط إطار. . واحد في قصة. . وإذا خرج بملابسه المسرحية إلى الشارع ظنه الناس مجنوناً. لأنه في الشارع خرج عن الإطار،

قفز من القصة، خرج من الأكذوبة إلى الواقع..

ولأن الممثل يدخل من حين إلى حين في قصة.. في شخصية.. في دور.. أي من أكذوبة إلى أكذوبة، اضطربت حياته وأعصابه.. وهو لا يدري من هو.. لأنه ليس واحداً وإنما هو كثير..

أذكر أنه كان لا بد أن أستمع إلى تفاصيل قصة تجسس من عدد من رجال المخابرات المصرية.. وكانوا كثيرين وكانوا ينادون بعضهم البعض بأسماء متغيرة. ولم أعرف أسماءهم الحقيقية. وسألت: كيف يعرفون بعضهم البعض؟

وكان سؤالاً ساذجاً. ولكن واحداً منهم قال: لكثرة الأسماء التي أتخذها وأغيرها وأبدلها، إذا نادتني زوجتي وأولادي باسمي الحقيقي فإني كثيراً لا أرد، لأنه ليس اسمي الوحيد!

وهذا الانتقال العنيف من دنيا المسرح إلى الواقع، يربك أعصاب الفنان. ويزلزل قوانين المنطق عنده. وقواعد الحياة العادية.

ومن الحوادث العادية في حياة الفنانين: الزواج والطلاق ـ بسرعة يتزوجون وبسرعة ينفصلون. قد يجيء الزواج في الواقع، بعد زواج في أحد الأفلام أو المسرحيات: أي أن الاثنين قد اندمجا في الكذب الفني، حتى صدقا مشاعرهما..

ثم يتزوجان. وبعد ذلك يكتشفان بسرعة، أنهما ظلا يكذبان ويكذبان ببراعة وإعجاب من الناس حتى صدقا هذا الكذب. ولذلك ينفصلان بسبب انكشاف الكذب وبسبب الملل والرغبة في التغيير والتمرد على الواقع أيضاً!

* * *

هذه الخواطر غير مرتبة سجلتها بعد جنازة الفنان الكبير أمين الهنيدي ثم تأجل نشرها.. وكنت أتحدث إلى الصديقين سعد الدين وهبة وحمدي غيث. نتساءل: أي مصير ينتظر الفنانين؟

أيهما أقسى على الفنان وعلى أولاده. المرض أو الفقر.

وكان الهنيدي قد قام ببطولة مسرحيتين من تأليفي هما: حلمك يا شيخ علام.. ومين قتل مين؟!

وكنت أشفق عليه. ولكن لا بديل عندي ولا بديل عنده إلا أن يكون مثل عود كبريت يتحرك على خشبة المسرح ليحترق كل يوم.. وما خشبة المسرح إلا «صنفرة» تسحق أعمار الفنانين.. فالفنان هو الشخص المحكوم عليه بأن يعيش ويموت في الأضواء وفيه أجمل أكذوبة - يرحمه الله!

* * *

مختار: الذي انشقت عنه الأرض.. وإهانات أخرى!

قلت لمحافظ الدقهلية سعد الشربيني: ولماذا لا يكون لأم

كلثوم تمثال آخر، في مكان آخر. فتمثالها في ميدان محطة سكك حديد المنصورة إهانة لأم كلثوم ولفن النحت وإساءة إلى أهل البلد الذين أرادوا تكريمها فأهانوها عندما صنعوا لها تمثالاً يشبه كفناً واقفاً على حيله.. وقد احتفظ بملامح سيدة الغناء العربي، فخر الدقهلية، وعظمة مصر، وتراث العروبة.

وأنا أقترح لهذه المهمة نحاتاً بارعاً هو د. فاروق ابراهيم الذي صنع تمثالي شوقي وحافظ والذي كلفه محافظ أسوان وهو من أبناء المنصورة بعمل تمثال لكاتبنا العظيم العقاد - والدة العقاد من المنصورة أيضاً!

ويوم الخميس القادم تحتفل محافظة الدقهلية بابنها العبقري المثال محمود مختار. وسوف تنتهز هذه الفرصة لتقيم معرضاً للفنون التشكيلية. ولعلها تفكر في أن يكون للفنان مختار تمثال أيضاً مع عدد من عباقرة الدقهلية في «جزيرة الورد» التي حولها سعد الشربيني إلى جنة عائمة لأبناء الإقليم..

ونحن نمر كل يوم ذهاباً وإياباً بتحفتين فنيتين للمثال مختار: تمثال نهضة مصر وتمثال سعد زغلول..

وإذا كان تمثال نهضة مصر قد اتخذ موقعه في الطريق إلى الجامعة، رمزاً لأن نهضة مصر إنما تبدأ بالعلم.. فقد شاءت محافظة الجيزة أن توجه «صفعة» للرمز والمعنى.. عندما أقامت - بلا هدف ولا ذوق - لوحات ورقية لعدد من زعماء مصر

السياسيين: عرابي ومحمد فريد ومصطفى كامل وسعد زغلول.. اللوحات من اللون الأحمر الفاقع، أفسدت المنظر العام وراء وأمام التمثال وقبة الجامعة ـ فلا هذه الصورة عمل فني.. ولا هي في مكان يلفت النظر إليها، وإنما هي في موقع يفسد النظر إلى الكوبري ويعترض المتطلع إلى الجامعة، ويعتدي على تمثال نهضة مصر.. وكأن هذه الإعلانات الصارخة الألوان تريد أن تقول: إن الفن قد انحدر من تمثال نهضة مصر إلى يومنا هذا. ولا أظن أن هذا ما حدث، وإنما هي وجهة نظر محافظ الجيزة.. إلا إذا كان المقصود من هذه الصور الملونة أنها مذكرة تفسيرية لنهضة مصر وأن هؤلاء الأربعة هم الذين أنهضوا مصر.. وليس هذا صحيحاً فالنهضة شملت كل نشاط إنساني في الأدب والفن والعلم والتربية والحرية!

والتماثيل المقامة في شوارع مصر والإسكندرية تبعث على الدهشة حقاً.. فكل الذين استحقوا الإشادة بهم جميعهم من رجال السياسة ـ كأننا نكن لهم الاحترام كله، فلا يشاركهم فيه أحد من الفنانين والمفكرين والمصلحين. ولكن الحكومات هي التي أقامت تماثيل رجال السياسة.. وكان الحكام ينتهزون هذه الفرصة ويكرمون أنفسهم. ومن بين هذه التماثيل تمثال لأحمد ماهر باشا أزاح الهواء عنه الستار لقد أقيم في لحظة عطف على الرجل الذي اغتيل.. ومثل كل العواطف

عندنا عابرة. وبسرعة كان الحزن، وبسرعة كان النسيان الذي يتضمن عدم احترامنا لصاحب التمثال!

ونحن نقيم التماثيل للذين نحترمهم، ولا نقيمها للذين نحبهم.. فلا تمثال في الميادين لشوقي وحافظ وصلاح الدين وعلي مبارك والطهطاوي وأم كلثوم وسيد درويش وطه حسين والعقاد والحكيم والشيخ محمد عبده والأفغاني ويوسف وهبي، وقاسم أمين وهدى شعراوي ومي زيادة والجبرتي والرافعي وغيرهم..

والمثال العظيم محمود مختار لم يلق ما يستحقه من التكريم.. ربما لأن فن النحت ليس شعبياً، ولأننا لا نجد كثيراً من التماثيل في القاهرة وعواصم الأقاليم.. ولأن هذه التماثيل لا ترتبط بعظماء من نوعية أخرى، من غير رجال السياسة..

حتى أمير الشعراء عندما تحدث عن رفع الستار عن تمثال نهضة مصر، التفت إلى عظمته هو شخصياً قبل عظمة التمثال، ثم إلى الملك فؤاد الذي كشف عن التمثال وانتهز هذه الفرصة ليمدح أباء وأجداد الملك فؤاد الأجانب عن مصر.

قال أمير الشعراء شوقي عن نفسه في مطلع القصيدة:

جعلت حلاها وتمثالها ... عيون القوافي وأمثالها
وأرسلتها في سماء الخيال ... تجر على النجم أذيالها

وإنـــي لغـــريد هذه البطاح تغـــذي جناهـــا وسلسالها
ترى مصر كعبـــة أشعاره وكل معلقـــة قالها

ثم التفت إلى الفنان مختار الذي جعل «نهضة مصر» فلاحة توقظ أبا الهول:

لقـد بعـث الله عهـد الفنون وأخرجـت الأرض مثالها
تعالوا نرى كيف سوى الصفاة فتـاة تلملـم سربـاً لها
دنت من أبي الهول مشي الرؤوم إلى مقعـد هاج بلبالها
وقد جاب في سكرات الثرى عروض الليالي وأطوالها
فقالـت تحـرك فهـم الجماد كان الجماد وعـي قالها

ثم توجه أمير الشعراء إلى الملك فؤاد وأجداده:

فؤاد ارفـع الستر عن نهضة تقـدم جدك أبطالها
ورب امرىء لم تلده البلاد نماهـا، ونبـه أنسالها
وليس اللآلىء ملك البحور ولكنهـا ملك من نالها
لقـد ركب الله في سعاديك يمـين الجـدود وشيالها
تخـط وتبنـي صروح العلوم وتفتـح للشرق أقفالها!

وأمير الشعراء معه حق عندما وقف أمام تمثال نهضة مصر، فلم ينس نفسه كواحد من الذين نهضوا بالشعر الحديث.. ولم ينس الملك فؤاد وأجداده، وإن كان قد نسى الفنان المختار، الذي قال أن الأرض قد انشقت عنه، ولم يتولد من نهضة عامة في الفنون والثقافة والفكر والحرية؟!

حتى لا يلوي ذراعيه وقراره ومستقبل الملايين بعد ذلك!

لا أريد أن أعلق على طلاق السيدة وسيلة من الرئيس بورقيبة ولا طلاق الرئيس تيتو من زوجته..

ولا أريد أن أستأنف غضبة الأستاذ العقاد على النحاس باشا عندما تزوج السيدة زينب الوكيل التي تصغره بعشرات السنين خوفاً من تأثيرها عليه.

ولا خوف الرأي العام البريطاني من زوجة زعيم العمال مستر كينوك لأنها تشترك في المظاهرات ضد الأسلحة النووية والتفرقة العنصرية، وهو الرجل الذي سوف يكون رئيساً للوزراء، وفي بريطانيا يقارنون بينها وبين زوج السيدة مرجريت تاتشر، الذي ليس له أثر يذكر على قرارات زوجته، وأنه هكذا سعيد في ظلها..

ولا أريد أن أعيد قضية: لما لم يتزوج مستر إدوارد هيث زعيم المحافظين رئيس الوزراء الأسبق..

فقد تساءل الناس: لماذا لم يتزوج؟ ومن حق الناس أن يعرفوا ذلك.. فهل هو رجل شاذ، وفي هذه الحالة يكون خاضعاً لسلطان رجل آخر عليه.. رجل آخر يؤثر على القرارات التي تتعلق بسياسة بريطانيا وحياة شعبها؟

إنهم يريدون أن يعرفوا إن كان رجلاً مقامراً.. أو كان

رجلاً يشكو من عيب جنسي . . - أي به ضعف خطير يؤثر في مستقبل بريطانيا . .

ولذلك نشرت الصحف البريطانية أن السيد هيث، لم يتزوج لأنه رجل كامل الأوصاف، ويفضل أن يعيش حراً . . ثم نشرت له صوراً مع فتيات-في باريس . . صديقات . . وعشيقات . . إذن فرئيس الوزراء ليس واقعاً تحت تأثير أحد، يلوي ذراعه وقراره ضد مصالح الشعب البريطاني .

وليس هذا تدخلاً في حياة رئيس الوزراء، ولكنها رغبة في الاطمئنان إلى استقلال قراره على حياة الشعب البريطاني . . .

وكذلك يوم اعترض الأستاذ العقاد على زواج النحاس باشا، لم يكن قد حشر أنفه فيما لا يعنيه . . بل في الذي يعنيه . . لأن قرار رئيس الوزراء يعنيه - وكان الأستاذ العقاد بعيد النظر. وكان على حق تماماً!

فحول صانع القرار زحام شديد . . هذا الزحام من أجل أن يكون لكل واحد نصيب في القوة والسلطة .

وهناك خوف دائم من أن يكون أقرب الناس إلى صاحب القرار، له نفوذ وسلطان يتعارض أو يتسلط على القرار - وقد أدى مثل هذا التخوف إلى طلاق بورقيبة وتيتو. فقد تجاوزت الزوجتان الحدود المسموح بها للزوجة . وانتهزت كل منهما أن

الـزوج مريض لم يعـد قادراً ـ أو هكذا توهمـت كلتـاهما ـ فأصدرت قرارات وتفسيرات أساءت إلى الرجل المريض وإلى ما تبقى له من وجاهة تاريخية!

وعندما تأخر الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني في الزواج بدأ الناس يتساءلون: هل هو الآخر مصاب بشذوذ جنسي؟

فكان لا بد أن يظهر الأمير على شاشة التليفزيون يتحدث بوضوح شديد عن مغامراته العاطفية والجنسية الكثيرة، وعن والدته التي نبهته أكثر من مرة إلى ضرورة الاحتشام.. وإلى أنه يتسلل آخر الليل على أطراف أصابعه إلى غرفته.. وأنها كثيراً ما ضبطته..

والمعنى: إنه شاب عادي.. وإنه تأخر في الزواج لأنه لم يجد بنت الحلال.. وهو لا يريد أن يجاهر بأنه ذئب.. وعلى الشعب البريطاني أن يطمئن إلى أن ملكه في المستقبل رجل من ظهر رجل!

وعندما سئلت زوجة رئيس جمهورية فرنسا لماذا لا تتحدث إلى الناس في السياسة.. كان جوابها: أنا الآن زوجة رئيس الجمهورية.. ولكن قبل ذلك كنت مواطنة عادية!

وعندمـا نشرت الصـحف الأمـريكية أن السيدة روزالـين كارتر هي أقوى امـرأة في العالـم، لأن لهـا أثـراً في قرارات الرئيس كارتر نشرت حديثاً تقول فيه: طبيعي أن يستشيرني..

ولكن لست إلا واحدة من مائة مستشار، ثم أنه هو الذي يوقع بإمضائه في النهاية . . ولكن ليس لي رأي معلن في أية قضية غير عائلية!

ولا تزال نكتة يوليوس قيصر هي القصة المضحكة المخيفة لكل الناس: يقال إنه يوم تتويجه أجلسوا إبنه الصغير على ركبتيه فتبول الطفل . . فنهض عدد من وجهاء روما وحملوا الطفل بعيداً عن الامبراطور الذي ضحك قائلاً: معه حق . . فليفعل ما يشاء . . إنني أحكم العالم وأمه تحكمني وهو يحكم أمه!

والمثل الأعلى هو ألا يتأثر الحاكم بإبنه وزوجته عندما يدير شؤون الملايين!

آخرة المشي وراء أنكوزة
ولكن المرأة لن تعود

في أحد مهرجانات الأغنية الأمريكية وقفت فتاة سمراء بمصاحبة عدد من الذين يدقون الطبول وينفخون الناي والراقصين، تردد في هدوء منشوراً ثورياً. هي لم تدرك بالضبط ماذا حدث لعدد من علماء النفس كانوا يستمعون إلى المهرجان في بيوتهم. من بينهم الأستاذ جنز برج الذي دخل السجن بتهمة تشجيع الشبان على تعاطي المخدرات والإلحاد والهرب من الخدمة العسكرية وترك البيت والنوم في زرايب الأبقار وتغيير أسمائهم واتخاذ أسماء حيوانات وطيور..

تقول الأغنية الهادئة الجميلة الموسيقى الساحرة الناي: وما حاجتي إلى بيت.. لقد ولدت في المستشفى، وكنت داخلية في المدرسة والجامعة، واتفقنا على الزواج في الأتوبيس، وتزوجنا في الكنيسة، وعملت في المصنع، وفي الصباح ألعب التنس وفي الظهر ألعب القمار وفي الليل أذهب إلى السينما، وعندما أموت سوف أجد مكاناً تحت الأرض.. فما حاجتي إلى البيت - إنني في حاجة إلى جراج!

أما المطربة التي لم تفز في هذا المهرجان فهي فاتيما

مانتلي فتاة سمراء هادئة الصوت جميلة العينين والشفتين . . وقد صفق لها الكثيرون . ولكن عدداً من علماء النفس قالوا معاً : وجدتها!

فقد وجدوا المنشور الثوري الموسيقي . فهذه الأغنية تعلن أن المرأة العاملة لم يعد يهمها البيت . فقط أن تعمل . وأن تكون خارج البيت في المصنع ، في الملعب ، في النادي ، في سيارتها . فوداعاً أيها البيت والأولاد والزوج . لقد طال سجن المرأة في البيت ألوف السنين . وطال ربطها بشغل البيت والطهي ورضاعة وتربية الأطفال وانتظار الزوج وراء الباب والشباك . . انتهى كل ذلك . .

وفي نفس الوقت ضاق كل شاب أيضاً بالقيود والقوالب التي يضعها الآباء والمجتمع والدولة والكنيسة للسلوك المهذب : الارتباط بالبيت وطاعة الوالدين، واحترام العادات والتقاليد ولوائح المؤسسات وقوانين التجنيد الإجباري والذهاب في طائرة أو سفينة أو غواصة لقتل أناس لا يعرفهم . . ولا يعرف لماذا يقتلهم . . وعلى مدى ألوف الأميال في بلادهم ، في بيوتهم ، في غاباتهم بين أطفالهم .

وكان عدد من أساتذة الجامعات الأمريكية قد دعوا الشباب إلى «الغياب» ـ الغياب عن حضور المحاضرات . . الغياب عن البيت ، عن الكنيسة ، عن المصنع . . عن طابور الصباح . . عن الحياة بتعاطي حبوب الهلوسة . وعن الوجود بالانتحار .

ثم ظهرت فاتيما مانتلي في برنامج تليفزيوني تغني:

لا البيت ولا المصنع ولا الكنيسة..

لا البيت ولا السوق..

لا البيت ولا المكتبة..

لا البيت ولا الزوج ولا الأولاد..

لا البيت وتأوهات خادمتي وصرخات قطتي..

وجوع عصفوري وصور ذكرياتي ولا الشارع الذي يمكنني من الهرب من العسكرية والصلاة والعزاء والزفاف.

ومعنى الأغنية: إنه لا شيء يمسكها عن الخروج من البيت.. عن التقاليد عن القيود التاريخية.. عن سجن النساء.. فقد قررت ألا تكون عبداً لأحد.. أياً كان هذا الأحد، وهي لم تشأ أن تذكر والدها وأمها وأخوتها. فهي لا ترى إلا خروجها وإلا حريتها!

ومنذ الحرب العالمية الأولى حين مات عشرون مليون رجل، قفزت المرأة لتعوض المجتمع عن السواعد التي فقدها.. فهي التي زرعت الأرض وحصدت.. وهي التي أدارت المصانع. لقد أكدت وجودها. وطالبت بأن تكون لها حقوق. لقد تقرر نهائياً أن تعمل إلى جوار الرجل. وتقرر نهائياً أن تتعلم لكي تواصل العمل.

وبعد الحرب العالمية الثانية التي مات فيها سبعون مليوناً، استأنفت المرأة مشاركتها في العمل والإنتاج وفي كل المواقع، وكان من حقها أن تختار الذين يمثلونها في البرلمان وفي الحكومة، ولأنها أصبحت قوة، اتجهت إليها كل المؤسسات والهيئات ووسائل الإعلام. فازدادت المرأة قوة. وازداد حرصها على أن تتضاعف قوتها، وعلى ألا تترك أي شيء كسبته مهما كانت التضحية ـ والتضحية هي البيت والأولاد . .

والبيت هو مصدر قوة المرأة، ونقطة ضعفها أيضاً. فهي بالغريزة أم، أي زوجة، وعش. وقد اعتادت ألوف السنين أن تبني العش وأن تحرسه من نزوات الرجل القوي دائماً، وأن تضحي هي من أجل أن تستمر الحياة، في أولادها . . فترك الرجل لها البيت، وتركها في البيت أيضاً.

ولكن المرأة التي تساوت حقوقها وواجباتها مع الرجل، أعلنت أن البيت شركة. وأن الأولاد مناصفة. أو أنهم «إنتاج مشترك» . . ولا بد أن يساهم الزوج في الرعاية والحماية . . وفي بلاد اسكندناوه، يحصل الرجل على إجازة وضع لأنه يجب أن يكون إلى جوار زوجته يتلقى معها إنتاجهما المشترك . . وأن يقاسمها تغيير ملابسه وفراشه ومواعيد الدواء واللعب والمذاكرة . . تماماً كما قاسمها الطهي والكنس وغسل الملابس والملاعق والمكوى . .

وكان على المرأة بأعدادها المتزايدة أن تواجه وحدها حملات الرجال ضدها فعندما كثرت اضطرابات الشباب وانحرافاته وتطرفه في كل الدنيا، كان التفسير الوحيد: أن أمه قد خرجت من البيت وتركته للخادمة. فهي السبب. وقديماً قال الرجال: فتش عن المرأة وراء كل مصيبة. وهي وراء مصيبة المصائب: إنحراف الشباب. فلو كانت الأم في البيت، ما قامت الخادمات بدور الأمهات. ولاعتدلت الموازين والمكاييل والمثل العليا عند الأطفال والشباب. ولكن في غياب الأم، اختفى البيت والدفء العائلي.

وكان الزواج المبكر. لأن هذا الزواج معناه أن الشباب عندما افتقدوا الأم والأب راحوا يبحثون عن البدائل. فنجد الشاب الصغير يجد في زوجته الطفلة بديلاً عن الأم، وتجد العروس الصغيرة في زوجها الطفل بديلاً عن الأب. وهكذا يتم تزوير الأبوة وتزييف الأمومة، وفبركة الأسرة العصرية!

ولكن المرأة ترى أنها عندما تقوم بتربية الطفل وتعليمه وعلاجه وتقويمه وحمايته وتقديم النماذج الصالحة في التربية والدين والسياسة والرياضة، فإن الدولة تعاقبها على ذلك مرتين: مرة بأن تتقاضى أجراً أقل من الرجل الذي يساويها في المؤهل وفي طبيعة العمل.. ومرة ثانية بأنها لا تعطيها أجراً على دورها في تعليم وتربية أطفالها.. بينما الدولة تعطي مرتباً للمدرسين ورجال الدين!!.

وفي نفس الوقت لا يكف الرجال في كل مكان وزمان عن القول بأن أعظم إنتاج تقوم به المرأة هو تنشئة وحماية مواطن صالح ـ أي طفل سليم وشاب قويم ورجل حكيم؟!.

ولكن هذه الاتهامات لم توقف المرأة عن المضي في قرارها: أن تخرج وأن تعمل تماماً كالرجل: فإذا كانت هناك جريمة فلماذا تقف هي وحدها وراء القضبان؟!.

وكان شعارها: إن كل إصبع في يد تشير إليها باتهام، يجب أن ننظر إليها مرة أخرى فسوف تجد إصبعاً واحدة تشير إلى المرأة، وبقية الأصابع تشير إلى الرجل نفسه!.

وفي سنة ١٩٤٩ سئل عميد المؤرخين أرنولد توينبي عن أهم حادث وقع في هذه السنة؟

وكان جوابه: إنه حادث صغير. ولكنه أعظم خطورة من كل ما حدث في تلك السنة مثل: قيام جمهوريات الصين ألمانيا غرباً وشرقاً وفيتنام وإعلان التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، وفتح حائط برلين وظهور رواية «١٩٨٤» للكاتب أورويل وحصول الأديب فوكز على جائزة نوبل ووفاة الأديبة النرويجية سيجيريد أوندست والأديب البلجيكي موريس مترلنيك ووفاة الموسيقار ريتشارد شتراوس واكتشاف الكورتيزون والنيوميسين وإلغاء توزيع الأقمشة بالبطاقة في بريطانيا وتفجير أول قنبلة ذرية في روسيا وانتشار رقصة السامبا.

أما هذا الحادث الخطير الصغير الذي التفت إليه توينـي في الجزء التاسع من كتابه «دراسة في التاريخ» فقد وقع في هدوء تام في مدينة نيويورك . . فقـد طلـب عدد من رؤساء الشركات إلى السكرتيرات أن يحضرن للعمل يوم السبـت . بأجر مضاعف . فرفضن . فعاود رؤساء الشركـات بإغرائهـن بالإجازات على نفقة المؤسسات وبتذاكر الطائرات . . ولكن السكرتيرات رفضن أي مبلغ من المال . . وفضلن أن يقمن بالإجازة والراحة والنزهة مهما كانت المكافأة .

هذا هو الحدث . ومعناه أن المرأة العاملة بعد أن استقر وضعها . . وبعد أن عملت وتعبت ، قررت أيضاً أن تستمتع بهذا الحق وأن تقـاوم كل محـاولات الرجـال في الـدوران حولها ، وسرقة هذا الحق منها ، يوماً بعد يوم .

ومعنى ذلك أيضاً : أن المرأة عندما يخيرونها بين الفلوس وبين راحتها ، فإنها تختار الراحة . أو بين حريتها والفلوس ، فإنها تختار حريتها . ولو لم تفعل بهذه الحرية شيئاً . بل أن بعض السكرتيرات كن يذهبن في يوم الإجازة إلى المكاتب يقـرأن الصـحف ويشربـن القهـوة ، ولا يستجبـن لنـداءات الرؤساء . . إنهن في إجازة يفعلن ما يروق لهن . . ولو كان الذي يروق لهن هو إغاظة الرؤساء واحتقار فلوسهم ! .

ومعنى ذلك : حاجة الرجال إلى المرأة ، وعجـز الرجـال عن الاستغناء عنها ، أو البحث عن بديل من الرجال ، فأعمال

السكرتيرات والاختزال والإدارة، من صميم قدرات المرأة .

ومعنى ذلك أيضاً: أن الرجل مهما كان قوياً، فليس قوياً جداً، وأن المرأة مهما كانت ضعيفة فليست ضعيفة جداً! .

ومن ألوف السنين أحست المرأة أنها ضعيفة . وأنها تضيق بهذا الضعف الذي يؤكده الرجل نثراً وشعراً وسلوكاً. ففي أساطير الإغريق ظهرت «الأمازونات» - أي النساء اللائي قررن ألا يتزوجن فلا يحملن ولا يرضعن. ولذلك نزعن أثداءهن . حتى إذا حملن السلاح على صدورهن، لم يعوقهن هذه البروزات العضوية! .

وعند الإغريق أن النساء هجرن الرجال وأقمن في جزيرة «لزبوس» - وكان أول مجتمع بلا رجال. . أي لا يعتمد على الرجال. هرباً من إذلال الرجال للنساء! .

وعندما سارت المظاهرات في نيويورك من عشرين عاماً، كشف النساء عن صدورهن تماماً. . وكان المعنى: أن الصدور التي حرص الرجال على أن تخفيها المرأة، دليلاً على الحياء وإثارة للرجال، قد كشفنها فالمرأة لم تعد تهمها كل مشاعر الرجل. . فهي لا تهمها إلا حريتها. . وإلا استقلالها وإلا رأيها هي. . أما هذه الآراء الموروثة المغروسة والمغروزة في أعماق المرأة، فهي من صنع الرجل ولإرضاء مزاجه الخاص! .

فكانت هذه المظاهرة، وغيرها، تمرداً على الرجل الذي سجنها ألوف السنين في سجنين: في البيت، وفي نظريات كاذبة تجعل المرأة تزداد ضعفاً، ويزداد الرجل قوة!.

* * *

وتعالت صرخات الرجال يقولون: إنها أنكوزة مرة أخرى!.

أما أنكوزة هذه ففتاة كانت في الرابعة عشرة من عمرها في إحدى قبائل جنوب أفريقيا.. كانت تنظر إلى الماء. وتقول: إنها ترى تاريخ القبيلة.. وترى كل شيوخها الذين ماتوا وتسمعهم وهم يقولون لها إنهم على استعداد أن يخرجوا من تحت الماء للقضاء على الرجل الأبيض.. وأنهم سوف يخرجون قريباً. وأن لهم شرطاً. هذا الشرط هو أن يتجرد أهل قبيلتها من متاع الدنيا. بأن يحرقوا كل ما يملكون من حيوانات ونباتات وملابس وطعام. فإذا حدث ذلك خرج الأجداد من تحت الماء ومن تحت الأرض للهجوم معاً على الرجل الأبيض وطرده والقضاء عليه.. لتكون الأرض لشباب القبيلة إلى الأبد.

وحددت هذه الشابة أنكوزة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٥٧..

وقبل ذلك اليوم تخلصت القبيلة من الأبقار فذبحتها وحرقتها.. ومن الأشجار والثمار.. وفي ذلك اليوم وقف

الشعب كله وراء أنكوزة.. ولم يظهر أحد من تحت الماء.. وثارت القبيلة وهاجت.. واستأنفوا إحراق كل شيء وأنفسهم.. وتسابقت دول العالم في إنقاذهم.. ولكن ٤٠ ألفاً ماتوا جوعاً وعطشاً.. أما أنكوزة فهربت وأخفتها إحدى الأوروبيات ولم تظهر بعد ذلك.

أي أن المرأة الجديدة هي أنكوزة التي بشرت بإنقاذ البشرية وذلك بالدعوة إلى هدم البيت والأسرة، وتجويع الرجل، استعداداً ليوم الخلاص الذي لا يجيء!.

إن الرجال يطالبون بعودة أنكوزة، وكل امرأة، إلى البيت بدلاً من الأوهام والخرافات التي تدعو إليها، والتي سوف تخرج من تحت الماء ومن تحت الأرض!.

ولكن المرأة مضت تعمل ويتضاعف عددها، وتتضخم قوتها..

وأكثر الذين يعملون نصف الوقت من النساء. فالرجال لا يفضلون العمل بعض الوقت.. إنما يرون أن العمل يجب أن يكون منتظماً. وأن يكون طريقاً إلى المستقبل.. أما المرأة فلا يهمها كثيراً أن تعمل بعض الوقت وأن تغير عملها كثيراً.. فالمرأة اعتادت على ذلك.. فهي عندما تتزوج تحصل على إجازة.. وعندما تنجب الطفل الأول تحصل على إجازة وبعدها قد تغير موقعها داخل المؤسسة أو خارجها.. وهذا الذي تفعله المرأة يتفق تماماً مع احتياجات

السوق.. ولذلك كانت المرأة أقدر على الوفاء برغبات المؤسسات والشركات..

وفي الدول الصناعية هناك وظائف كثيرة احتكرتها المرأة تماماً: كالتدريس والطب والعلاقات العامة والتمريض..

وفي السويد والنرويج تجد أن سبعة من كل عشرة موظفين في الدولة من النساء.. وفي العالم الثالث زاد عدد النساء العاملات، وزادت ساعات عملهن أيضاً. وكثير من الوظائف التي يتخلى عنها الرجل.. تحتلها المرأة بسرعة وبكفاءة.

والمرأة تملك ثلث القطاع الخاص في كندا والربع في أمريكا والخمس في فرنسا.. وإلى المرأة تتجه كل الإعلانات على الشاشة وفي الصحف.. أليست هي قوة المال والإدارة والاستهلاك؟!.

وإلى إرضائها وإغرائها ومنافقتها، تلتوي كل أجهزة الدعاية أيضاً!

تقول العالمة الأمريكية الكبيرة مرجريت ميد: حمداً لله.. ما يزال الرجال عقلاء.. إنهم أبعدوا المرأة عن الحرب، فالمرأة أكثر شراسة من الرجل.. وتركوها في المؤخرة على استعداد لأن تقفز على كل مكان يخلو بموت واحد من المدنيين!.

سيادته يطالب باعتقال
كل الناس حتى يسمعوه!

أنت لست في حاجة إلى أن تعبر البحر الأبيض أو المحيط لتدرك الفرق الهائل بين حضارتنا الحزينة وحضارات أكثر مرحاً، ولذلك فهي أكثر حيوية.. وإنما تفرج على برنامج «العالم يغني» في التليفزيون.. إنهم أكثر شباباً وجمالاً وهم ايضاً أغزر إبداعاً..

وأرجوك أن تعود إلى برنامج «الموسيقى العربية» أو من «أغاني الأفلام» أو «اخترنا لك».. وأنت سوف تتذكر، إن كنت قد نسيت، ما الذي كان يضايقك ثم يبكيك على نفسك، وأنت لا تدري. إنه هذا الغم الغنائي، والأسى الموسيقي والنكد الأوركسترالي، والطرب الجنائزي.

وفي نفس الوقت تقول: إننا شعب ابن نكتة

ومن المؤكد أننا نحب النكتة ونخترعها في كل المناسبات ولكن هذا يؤكد أننا شعب ضاحك.. ولكن ليس شعباً مرحاً ولا شعباً ساخراً

فالضحك عصبي..

والمرح، نفسي وعقلي..

والسخرية، نقد ومثالية..

أما الحزن الذي في أعماق تاريخنا، فهو في أعماقنا أيضاً ولذلك كان الأسى والشجن. ويجب ألا ننخدع بظهور الورود وراء المطرب والمطربة، فهي أيضاً وراء النعش في الجنازات.

ولذلك فالأغاني والموسيقى لا تنعش أحداً. وإنما تضاعف حزنه على نفسه وعلى أهله ومستقبله.. إنها ليست من النوع الذي يفرفش الملك شارلمان!

ويقال إنهم سألوا الملك شارلمان لماذا هذا العدد الكبير من المطربين والعازفين وراءك فأجاب: إن العظمة تحتاج إلى من ينعشها.ويفرفشها دائماً!

ولا هي من ذاك النوع الذي يشغل الناس عن الحاكم كما قال الكاردينال الإيطالي الأصل مازاران أحد وزراء لويس الرابع عشر قال أن الشعب الفرنسي لطيف جداً.. جداً.. أنا تركت لهم الغناء والرقص، وهم تركولي السياسة.

ثم يستدرك مازاران بعد ذلك ويقول كانت غلطة.. الشعب الفرنسي أخذ أجمل ما في الحياة، وانفردت أنا بأسوأ ما فيها.

وما تزال الأغاني المصرية والمطربون المصريون واقفين هناك. لم يتقدموا في الكلمة واللحن والأداء.. هل لأنهم عاجزون؟ هل لأننا نحن عاجزون عن التغير وأنهم ظلال

لنا، صدانا. . وإذا كنا نكره هذا الذي تراه فمعنى ذلك أننا نسينا أنهم إنعكاس لنا. . فنحن ـ إذن ـ نكره أنفسنا. ونكره عجزنا عن تطوير قدراتنا والتعبير عنها في الشعر والغناء والموسيقى. .

ومنذ أيام تحيرت بين القرف والضحك عندما سمعت مطرباً شاباً، بل ليس مطرباً. . فأغنية واحدة لا تصنع مطرباً، كما أن زهرة واحدة ليست ربيعاً وجدته يشكو من انتشار صناعة الكاستات. . وأن رواج الكاستات أدى إلى عدم إقبال الناس على الأغاني الجيدة. يقصد أن أغانية هو جيدة، وأن أغنيات الكاستات رديئة ومنتشرة وأنها أفسدت الذوق العام. ولذلك يجب منع صناعة الكاستات وصناعة أجهزة التسجيل والسيارات المزودة بهذه الأجهزة فإذا أعلنت حالة الطوارىء هذه. فسوف يستمع الناس إلى أغانيه.

أي يجب اعتقال الناس جميعاً لكي يسمعوه بالقوة؟!

فإن لم تكن غباوة وغروراً، فهو الفشل والإفلاس. . ومن أجل إقناع الملايين بصوته وصورته غنى لنا واحدة من أغانيه. وكان مقنعاً بأنه من أجل مثل هذه الأصوات الهزيلة انتشرت الكاستات لأصوات شابة جديدة. تعلق بها الناس اعتماداً على قاعدة تقول: إذا لم نجد ما نحبه فإننا نحب ما نجده!

* * *

إذا حذفنا آمالنا وآلامنا فهو مثل أي صوت؟!

أحياناً استمع إلى خطب الزعيم الراحل جمال عبد الناصر من بعض الإذاعات العربية.. أو من بعض الميكرفونات.. وأتوقف واندهش كيف أن الرجل ليس صوته قوياً ولا مليئاً بل فيه «خنافة» واضحة.. ومع ذلك كان الرجل يشعلنا ناراً وامتناناً. بل كان يكفي أن يقول: أيها الأخوة المواطنون حتى نذوب في عينيه اللامعتين.. وحتى نتقمص شخصيته.. ونرى في لونه الأسمر وادي النيل، وفي طوله الذي كنا نراه عملاقاً، علواً واتساعاً لكبريائنا. كيف كان ذلك، وهو الآن لا يهز منا شعرة.

أذكر أنني استمعت إلى تسجيل لخطابه في المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ في بيت الأستاذ الكبير محمد التابعي، كان قد سجله، ثم أهداه للرئيس عبد الناصر. وكان الخطاب مروعاً، وكان صوت عبد الناصر ذبيحاً. وكانت بعض عباراته خناجر تمزق التاريخ والقلوب وكبرياء الإنسان عندما كان مخنوق الحنجرة والأنف يقول: أنا الذي علمتكم الكرامة.. أنا الذي علمتكم العزة..

ويومها قال الأستاذ العقاد: إن الشعب المصري يستاهل

ضرب الجزمة إذا سكت على هذه الإهانة لكل تاريخه وكفاحه.

وكنا نؤرخ لذلك الخطاب فنقول: ق.م.أ - أي قبل ما علمنا الكرامة.. وب.م.أ. - أي بعد ما علمنا الكرامة!.

واستمعت صدفة إلى هذا الخطاب فلم أجد له أثراً على الأذن والأنف والحنجرة! لماذا؟

ومنذ أيام شهدت فيلماً تسجيلياً بعنوان «كفاحي» عن الزعيم الألماني هتلر الفيلم يستعرض حياته منذ أول خطاب ألقاه في ميونيخ في الثلاثينات، وقيام الحزب الإشتراكي الوطني.. وحريق البرلمان، وزحف هتلر الفخم الرهيب على السلطة وراء ملايين الألمان في حالة تنويم مغناطيسي. وهذا الرجل هو الساحر الذي نفخ في الأبواق ومشت الملايين وراءه إلى الموت، كما مشت وراء نابليون وجنكيزخان والإسكندر، سعيدة بذلك.

كيف؟

وكنت حريصاً على أن أرى هتلر بعناية تامة.. وأراه وهو يخطب دون أن أسمعه. وأراه وأسمعه معاً.. إنها حركات رجل مجنون اليدين والعينين والشفتين.. أما صوته فليس ذلك الأجش الساحر الذي كنا نقرأ عنه.

مثلاً هذه العبارة: إن الشعب الألماني تصفيق إذا ما اختار القدر (تصفيق) فإنه يختاره لكل شعوب أوروبا (تصفيق حاد)

وإذا ما ركع ولن يركع (تصفيق) سجدت كل الشعوب أمام الهوان والذل لألف عام (تصفيق جنوني) . إن (تصفيق جنوني) قدرنا يدق مع أحذيتنا (تصفيق) على أرض أوروبا ويرن ويطن ويئن (تصفيق حاد جداً) إلى آخر الأكاذيب التاريخية التي تركها الإستعمار وأعداؤنا في كل مكان (جنون من الصرخات والتصفيق) .

ولكن هتلر كان يخطب في شعب له ظروف يعرفها تماماً ، وأمام حشود منظمة والقلوب معبأة والعقول موجهة ، فإذا ظهر هتلر كان ذلك كافياً وإذا خطب كان ذلك فوق طاقة البشر . .

وكذلك خطب الرئيس عبد الناصر، إذا وضعت في ظروفها، وآمال الشعب والأمة وما كنا نتوقعه معه ووراءه وفي ضوء عينيه ، وبريق عقله واستناداً إلى صلابة إرادته ، كان يكفينا في ذلك الوقت أن يظهر أمامنا ، ليتحول الناس إلى بحر هادر ، ويكون هو سفينة النجاة والقبطان . .

أذكر أنني في سنة ١٩٦١ وما بعدها كنت ممنوعاً من السفر . . وفي سنة ١٩٦٣ قمت بنوع من امتحان النيات الحسنة . . وطلبت أن أسافر لكي أشهد «المجتمع المسكوني» في الفاتيكان . . أي المجتمع العالمي الذي يناقش وثيقة تقدم بها الكاردينال الألماني بيا . . هذه الوثيقة تتطالب بالعفو عن اليهود وغسل أيديهم من دم المسيح - وهي تهمة من عمر الديانة المسيحية . .

وذهبت. ولكن أروع شيء هزني وظل يرن في أذني واعتقدت في ذلك الوقت أنه صوت سماوي. . أقصد صوت المضيفة وهي تقول: تعلن مصر للطيران عن رحلتها رقم كذا المتجهة إلى روما وأننا سوف نقطع المسافة في كذا على ارتفاع كذا. . نتمنى لكم رحلة سعيدة. .

فلم أكن قد سمعت هذا الصوت من سنوات. . وتمنيت ساعتها أن تظل الطائرة في السماء ولا تهبط أبداً. . وظل صوت المضيفة المحشرج والذي ليس واضحاً هو صوت أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم. وموتسارت وبيتهوفن. . وتمنيت أن يكون هذا الصوت هو آخر الأصوات في أذني.

وشاءت الصدفة أن أرى المضيفة في مكتبي وأن أستمع إليها بلا ميكرفون فلم أجدها لا صوتاً ولا صورة. .

«ميسون» وأخواتها!

في الصفحات الأولى من مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي تجد هذا الحوار الجميل الساذج بين هند وليلى..

تقول هند تضيق بالحياة في الصحراء:

سئمنا من البيد يابن ذريح
ومن هذه العيشة الجافية
ومن موقد النار في موضع
ومن حالب الشاة في ناحية
وأنتم بيثرب أو بالعراق
أو الشام في الغرف العالية
وقد تأكلون فنون الطهاة
ونأكل ما طهت الماشية!

وترد عليها ليلى:

فما البيد إلا ديار الكرام
ومنزلة الذمم الوافية

لهـا قُبلــة الشــمس عنــد البزوغ
وللحضر القبلــة الثانية
ونحــن الريــاحين ملء الفناء
وهــن الريــاحين في الآنية
ويقـتلنــا العشق والحاضرات
يقمــن من العشق في عافية
ولــم نصطــدم بهمــوم الحياة
ولـم ندر ـ لولا الهــوى ـ ما هية!

ولكن ليلى التي تتغنى بالصحراء والحياة فيها، هي أكثـر تعاسة من هند التي ضاقت بهذه الحياة الشاقة الجافة!

وهذه الصحراء لم يعد لها وجود، إلا على الخريطة. فقد استبيحت الصحاري الآن. . بالطرق المرصوفة والسيارات والطيارات وأنابيب البتـرول. . وأجهـزة التليفـون وأسلاك الكهرباء. . وانتقلت المدينة إلـى قلـب الصحـراء. وإلـى سكان الصحاري. .

وفي كثير من البيـوت يعلقـون صورة للإبـل. . والسفـن القديمة للصحراء. .

كمـا نعلـق نحــن في مصر في بيوتنــا صوراً لحامــلات البلاص. . ولكن الذين يعلقـون حاملـة البـلاص يقصدون أشياء أخرى كثيرة. . فالبلاص لا بد أن يسقط منه بعض الماء

على صدر من تحمله. وهنا يقوم الماء بدور السوتيان، فيبرز النهدين.. والصدر..

ولأن حاملة البلاص قد ملأته من الترعة، فهي قد نزلت إلى الماء، وحتى لا يبتل كل ثوبها، فإنها ترفع طرفاً منه.. حتى تبدو ساقها للذين جلسوا بالقرب من الترعة.. فهي إذن لوحة استعراضية للوجه والنهدين والردفين والساقين.. مع أننا نسميها حاملة البلاص!

وانتشر الورد الصناعي الأقوى عوداً والأطول عمراً. أما الورد الطبيعي الأقصر عمراً والأكثر عطراً، فله مناسبات معروفة: الأفراح والمآتم..

والورد مثل الحب الصادق العميق: حي قصير العمر..

والجنس مثل الورد الصناعي في الآنية جاف لا يموت ولا يحيا، وإنما هو يتكرر..

والشعراء والفنانون جميعاً يغنون وراء «ليلى».. وراء الحب وعذاب الحب.. وراء الضعف الإنساني.. فليس الحب هو أن تملك أحداً، ولا أن تستمتع به، ولكن أن تحلم بذلك..

وكل قصص العشاق في التاريخ، هي قصص ناقصة لم تكمل.. ولولا هذا النقص في قصص الحب، ما كان الحب.. أو ما كان الحنين إلى النهاية.. وبين الحب

والحنين إلى المحبوبة يتفجر كل الشعر. . ولولا هذه المسافة بين المحبين، ما كان الحب «العذري». . هذه المسافة الآن قد قضت عليها الحياة الاجتماعية: المقاهي ودور السينما والتليفونات والمعاهد. . والأندية الرياضية. . لم تعد هناك مسافة. ولم يعد هناك خوف. فالمدن كبرى وهي قادرة على إخفاء العشاق. . وحبوب منع الحمل قادرة على أن تتكفل بالباقي!

ولذلك أصبح الحب غريباً. .

وأصبحت أعجب أخبار الدنيا أن يحب إنساناً أحداً. .

وكل المجانين في الشعر العربي، عاشوا وماتوا على أبواب المحبوب. . وكل مجانين الحب في الأدب العربي لم ينالوا من المحبوب شيئاً.

الشاعر الإيطالي دانتي تخيل أن حبيبته بياترنيشه تمشي معه في الغابة وراح يروي ما الذي رآه في الجنة والنار. . مع أن بياتر نيشه هذه فتاة غبية بليدة. كان زواجها عادياً: اختارت رجلاً غنياً وفضلته على شاعر عبقري مفلس. .

وحبيبة الشاعر بتراركة. .

وحبيبة الفيلسوف نيتشه كانت فتاة يهودية. وكانت محبوبة لعباقرة عصرها: العالم فرويد والشاعر رلكة والفيلسوف نيتشه. . وقد ربطتهم في عربة يجرونها، وهي تلهب

ظهورهم بالسياط ـ حمير أو خيول أو كلاب . وأسعدهم ذلك!

وكذلك كل هذه الأسماء المعروفة في الأدب العربي : قيس والمجنون وكثير وعمر بن أبي ربيعة والرافعي والعقاد وغيرهم . .

ولذلك سوف تبقى قصة غرام ادوار الثامن من امرأة أمريكية متزوجة هي قصة العصر الحديث كله . فمن أجلها ترك العرش!

وسوف تبقى قصة الأميرة ديانا التي تزوجت ولي عهد بريطانيا من معالم الخير في هذه الدنيا . إنها فتاة عادية سوف تكون ملكة . . وأشفق الشعب البريطاني عليها من قوالب الملك وقيود الأسرة العريقة . ولكنها أصرت أن تبقى بسيطة تنزل إلى الأسواق تشتري احتياجاتها . . وأن تحمل طفلها . . فإذا بكى وضعت إصبعها في فمه ليسكت ـ كما تفعل كل الأمهات والخادمات أيضاً .

وازداد حب الناس لها وتمنوا لها السعادة . لأنها بطلة قصة حب . .

وإذا كان في الدنيا كلها من عنف : السياسة والاقتصاد والحرب . . وإذا كان الشباب يرقص بعنف ويغني بعنف ، ويموت بقسوة ، ويكره بدم ، فما ذلك إلا لأنه قد انساق وراء

قسوة الكبار. . ولكنه في نفس الوقت في حاجة إلى الحب . .

وإذا كان الناس يفضلون عصير التفاح والبرتقال، على أكل التفاح والبرتقال. . فلأن التكنولوجيا الحديثة قد فرضت علينا لأسباب اقتصادية

ولكن لا تزال أفلام «رعاة البقر» محبوبة من كل الناس. . لأن فيها شجاعة ورجولة ولأن فيها قوة فردية. . ولأنها «فطرية» فالناس يمشون على أرجلهم ويزرعون بأيديهم. . ويأكلون بأصابعهم. . ويصيدون الحيوانات ويطبخونها وينامون في الصحراء. . ولسبب آخر: إنهم يحبون. . فالمرأة تظهر في هذه المسلسلات: نعمة ورحمة ونقطة تحول. .

وفي التوراة تقرأ «نشيد الإنشاد» فتجد بطلة النشيد فتاة اسمها شولاميت ـ راعية غنم..خطفوها ووضعوها بين ألوف من حريم الملك سليمان. ولكنها ظلت تبكي حبيبها راعي الغنم. . وكان بكاؤها أول تمرد معروف على الحب بالإكراه والزواج بالقوة وشراء القلب بالذهب!

وفي الشعر العربي أن فتاة اسمها «ميسون» زوجوها بالقوة فقالت:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه
أحب إلي من قصر منيف

وأكل كسيرة في كسربيتي
أحب إلي، من أكل الرغيف
وبعل من بني عمي رفيق
أحب إلي من ملك عنيف
وكلب ينبح الطراق دوني
أحب إلي من أسد مخيف!

إنها تفضل الحب في كوخ مع الكلاب، على الحياة في قصر مع الأسر والكراهية..

إن كل العاشقات الحبيبات العذريات شولاميت وميسون.. إنهن مريضات حباً.. يقتلهن العشق، وبنات المدن يقمن من العشق في عافية..

ولا ينقذ الناس من الناس إلا ألوان من الحب.. حب الناس.. حب الخير.. حب الجمال.. حب العدل.. حب الله!

أما المرأة فأنا كفيل بها!

عندما أصبحت الممثلة الفرنسية «بريجيت باردو» نموذجاً للأنوثة كتبت الأديبة الوجودية سيمون دبوفوار بحثاً ممتعاً، اتهمت فيه الرجال بفساد الذوق.. وأن هذه الطفلة الصغيرة ب. ب قد فضحتهم، فإعجابهم بها يدل على أنهم يفضلون المرأة التي هي وسط بين الأنوثة والطفولة!

وعندما وقف الملايين في العالم يتفرجون على تابوت توت عنخ أمون، كان ذلك نوعاً من عشق الذات.. فالشبان الذين يتفرجون على الملك الفرعوني يشبهونه كثيراً. فهم أيضاً وسط بين الرجولة والطفولة.. فهو ذلك الفتى الصغير الذي يثير العطف والإعجاب معاً مثل: جيمس دين والفيس برسلي وعبد الحليم حافظ ومايكل جاكسون. وهو الذي يهز قلوب الرجال ويفتح أحضان الأمهات. وكل الإناث أمهات ولو نام الموت على صدر وساقي امرأة لفكت زرايرها وأرضعته!

ومعنى ذلك الزمن الذي كانت تتصدره جين رسل بصدرها وكذلك جينا لولو بريجيدا ومارلين مونرو - أي زمن الأنوثة

الصارخة الشفتين والنهدين والردفين والساقين قد مضى وانقضى..

وقد أعجب العرب يوماً ما بالمرأة التي ليست في حاجة إلى حركة لأنها ابنة الأغنياء. فالحركة ترف. يقول فيها الشاعر:

تمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحل

أي كما تمشي العرجاء في الطين؟!

وليس هذا الذي نتحدث عنه إلا ذوق الرجل وقد فرضه على المرأة..

وإلا حيرة المرأة في التعبير عن حيرة الرجل، وكيف يراها، بين الأنوثة والطفولة، أو كيف يرى أزياءها بين العري الكامل، وبين التغطية الكاملة.. فكل أزياء المرأة هي محاولة مستمرة للتعري والعدول عن ذلك في آخر لحظة.. وقد يكون قرار العدول عند ساقها أو صدرها أو ظهرها..

ويكفي أن ننظر إلى فساتين المرأة لنرى قلقها الأنيق الفخم، وعذابها الرشيق.. انظر إلى خطوط الفساتين: خط الرقبة وخط الوسط وخط الذيل.. وكلها طالعة نازلة منكسرة متعثرة..

ففي أوائل الخمسينات ظهر فستان «نيولوك» ـ أي «النظرة

الجديدة» من تصميم كريستيان ديور وقد وقف ذيل هذا الفستان إلى ما تحت الركبة . .

وبعد ذلك ظهر فستان «الشوال» الواسع الذي يخفي معالم الجسم . . وتبدو فيه المرأة كما لو كانت حاملاً ، أو تريد ذلك!

وفي أواخر الستينات ظهر «الميني جيب» أي الفستان القصير فوق الركبة بشبرين وأحياناً بثلاثة . . ثم ظهر «الميكرو» الذي هو اعتذار عن ارتداء الفستان واكتفاء بالإشارة إلى هذه الرغبة ـ فقد كان الفستان قصيراً جداً . .

ثم طالت الأكمام وارتفع خط الرقبة . .

وفي الخمسينات حاولت بريطانيا أن تنتزع مركز الأناقة من فرنسا . . فقدمت الميني جيب ، واستحقت صاحبة هذه الموضة أعلى النياشين في بريطانيا . . وفي نفس الوقت ظهر «الخنافس» في الغناء وهم الذين انتزعوا الأغنية من أمريكا . . ثم غزوا أمريكا . .

وظهر «الأدباء الساخطون» على التقاليد الأدبية والاجتماعية والدينية ، وانتزع المسرح البريطاني المسرح التقليدي في باريس ونيويورك!

وعندما ذهبت حرم الرئيس الفرنسي بومبيدو، وهي أشيك سيدة في العالم إذا لم ننظر إلى وجهها ، إلى أمريكا في زيارة

رسمية فقابلتها سيدات البيت الأبيض والخارجية بفساتين فوق الركبة وفوقها كثيراً، وكانت المفاجأة.. فقد تركزت العيون والكاميرات على فستان حرم رئيس الجمهورية الفرنسية. لقد كان فستانها «ماكسي» أي تحت الركبة بشبرين!

وكان ذلك إعلاناً رسمياً بأن باريس استعادت ديكتاتورية الأناقة في العالم.. وبعدها طال الفستان في كل الدنيا!

ومن فستان المرأة إلى شعرها: إنه طويل ثم قصير، يتدلى على الوجه، وعلى الجانبين.. تواري فيه المرأة عينيها ثم تكشف عن جبهتها.. وطال شعر الرجل، فقصرت المرأة شعرها.. وارتدت المرأة بنطلون الرجل وقميصه، وارتدى الرجل أقراط المرأة وبلوزتها.. ثم حلقت المرأة شعرها تماماً، وصبغت فروة رأسها، وأطلق الرجل شعر لحيته وشاربه..

وقد عرفنا في الحضارة الفرعونية، أن أجدادنا كانوا يحلقون رؤوسهم بالموس وكذلك المرأة. السبب هو النظافة والطهارة. وكانوا يضعون باروكة من شعر الماعز.. ابتداء من الملكة حتشبسوت حتى سائق عربتها الحربية!

وعند اليهود القدماء كانوا يطيلون كل الشعر في كل الجسم وفي التوراة صور للشعر الذي يخرج من الأنف

والأذن وأماكن أخرى . وقصة شمشون الجبار دليل على أن الشعر كان من مظاهر القوة . . وعندما عرفت الفتاة الفلسطينية «دليلة» مصدر قوة شمشون حلقت شعره فتكاثر عليه أعداؤه حتى أفقدوه عينيه . . ولما طال شعره أصبحت له قوة عمياء غاشمة ، فهدم المعبد عليه وعلى أعدائه!

وبعد الحرب العالمية الثانية دخلت المرأة في الملابس العسكرية . في الزي الموحد وارتدت بنطلون رعاة البقر ، والبلوجينز وهو أعظم اختراع عرفه الإنسان وهو زي خشن متين رخيص . زي كل المناسبات . وفي ذلك انتصار للجنود وانتصار لكل الناس العاديين . . وانتصار للملابس الجاهزة ، على «الخياطة الراقية» بعد الحرب العالمية الثانية ، والخاصة بالقادرين من الأغنياء . . وانتقام للأغلبية الصامتة على الأغلبية الصارخة الألوان والمجوهرات . .

وأظافر المرأة قد انكسرت عندما خرجت للحياة العملية . وتولت الآلة الكاتبة قصفها . وكان طول الأظافر مثل الفساتين دليلاً على أن المرأة لا تعمل وعلى أنها ست بيت ، وأنها ليست في حاجة إلى العمل . . ولكن ظهرت الآلات الكاتبة والحاسبة التي لا تحتاج إلى أظافر وإنما لمس الأصابع يكفي . فعادت الأظافر طويلة . . وظهرت مواد كيماوية تطيل عمر الأظافر وتقوي لمعانها وبريقها . .

وقد اعتادت المرأة التي دخلت عالم الرجال أن تستعير

أساليبهم في الحياة والحركة : فبعد أن ارتدت البنطلون ووضعت السيجارة في فمها ورفعت صوتها وزاحمته بفساتينها القصيرة والمخرفه في كل وسائل المواصلات، أن عاشت وحدها بلا زواج . . وأن أصبحت أماً بلا زواج . . وكما استطاع الرجل أن يحصل على حرية أن يتزوج من يشاء من الفتيات الحوامل ومن الرجال أيضاً، كذلك استطاعت الفتاة أن تفعل نفس الشيء . .

وتظاهرت النساء في كل مكان يطالبن بحرية الإجهاض . لأن الحمل إذا كان جريمة، فقد ارتكبها اثنان . فليست المرأة وحدها هي التي تحمي ثمرة هذه الجريمة . . وقد اعترفت دول كثيرة بحق المرأة في أن تكون أماً بغير زواج . .

وخرجت النساء في شوارع العواصم الأوروبية وقد عرين الصدر تماماً . . أما المعنى فهو: إن كان الرجال يرون أن عيب المرأة أنها أنثى وأن ثدييها من مظاهر ذلك فها هو الصدر عارياً . . كأنه بلا قيمة . . أو معنى أو جمال . !

وقبل ذلك بألوف السنين، ثارت النساء على ضعفهن، فقطعن أثداءهن . . ولذلك كان لهن هذا الإسم : الأمازونات ـ أي اللاتي بلا أثداء ـ أي ما دامت المرأة لن تحمل فهي لن ترضع فلا معنى لهذا الثدي!

وكان العالم المصري رفاعة الطهطاوي عندما سافر إلى باريس في أوائل القرن التاسع عشر، قد لاحظ أن المرأة الباريسية تضع عوداً من الحديد في صدرها ليبرز نهداها ويستقيم قوامها. . ولاحظ أن الرجال يعيرون المرأة بأنها هابطة الصدر. . أما المرأة المتحررة فهي التي كانت تخفي ثدييها، استنكاراً لذوق الرجلِ وتمرداً على نظرته للجنسية!

* * *

والمرأة حائرة بين خطوط الموضة وخطوط الحرية، والفواصل بين الجنسين. . وأنها دائخة بين دواعي الأناقة والجمال ومبادىء الأخلاق وبين الحب والجنس والزواج. .

والرجال يلاحقون المرأة، ويحاربون معها ووراءها. . وتؤدي هذه الحيرة إلى القلق والأرق!

ولكن من الذي فعلها ـ أي من الذي ارتكب جريمة الحيرة!

إنهم الرجال. فهم الذين يضعون الموضة للمرأة، وكل أدوات الزينة والتجميل. .

والمرأة هي التي تقوم بدور السمسار الجميل بين البائع والمشتري. .

هل هو قلق الرجل، انتقل إلى المرأة؟ أو هو شعور المرأة بعدم الأمان قد أكده الرجل؟ . .

إنها بضاعتنا ردت إلينا في نحورنا ـ فاللهم إحمني من الرجل، أما المرأة فأنا كفيل بها!

الفلوس لا تشتري الحب
إنها تدعم موقفك التفاوضي!

لا أنسى أول محاضرة ألقيتها في كلية الآداب.. وقفت إلى جوار السبورة لكي يعرف الطلبة أنني مدرس الفلسفة الجديد. ولا بد أنني كنت مكشراً. وفي يدي قطعة من الطباشير. وكانت دقاتها على السبورة مثل دقات المدفع أو دقات المسرح أو الدقات الموسيقية في بداية السيمفونية الخامسة لبيتهوفن. كان صداها في أذني ودماغي وكياني كله أقوى وأعنف. ولا أدعي أنني كنت أرى أو أسمع. وكانت أمواج من الضباب تتحرك حولي في القاعة. طلبة يدخلون ويتهامسون. وفجأة هدأ كل شيء. وأنا أقول لهم: المقرر طويل جداً. وصعب جداً. ولا بد من اليقظة منذ اللحظة الأولى. وسوف أكتب لكم المراجع بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية..

وكان هدفي أن أؤكد لهم أنني المدرس. وأن أسكتهم، وأن أشغلهم عن النظر ناحيتي. ولكن لم يحدث شيء من كل ذلك. ففي اليوم الأول من العام الدراسي يأتي الطلبة ليتعارفوا. ومن النادر أن يكون مع واحد منهم قلم أو ورقة.

إذن فسوف ينظرون لي بدهشة واستغراب، وسوف يدركون مدى ارتباكي وحيرتي والعرق على وجهي . .

إذن فهذه الحيلة لم تنفع ! . .

وتلاشت الصدمة الأولى والأخيرة . واعتدت على مواجهة الطلبة بالألوف ولعشر سنوات مع قليل من العرق على الوجه وفي اليدين ! . .

* * *

ولأدباء آخرين أفعال وردود أفعال أخرى :

قال لي المرحوم يوسف السباعي إنه لم يكن يتلعثم كما يبدو عليه أحياناً . وإنما أصيب بذلك بسبب خجله في مواجهة الطلبة في الكلية الحربية .

* * *

قال لي صديقي الطبيب د . عبد اللطيف الشنواني إن سبب سلاطة لسان الأساتذة أحياناً، ليس أنهم كذلك، وإنما رغبتهم في مواجهة الطلبة بالعدوان عليهم وإسكاتهم وإحراجهم . وبعد ذلك تصبح عادة، الأساتذة يقولون ذلك والطلبة يستمعون إليه . ويضعون أيديهم في جيوبهم فلا يسألونهم عن شيء - إنهم يخافون بهدلة الأساتذة ! . .

في حفلة أقيمت للأديب الإنجليزي ه . ج . ولز حضرها مئات من الأدباء والناشرين . طلب واحد منهم أن يجلس إلى

جوار الأديب. وفي نهاية الحفل خرج غاضباً لأنهم لم يمكنوه من الجلوس إلى جواره. فقالوا: بل يجب أن تقنع بنصيبك فقد تكلمت كثيراً . .

قال الرجل: تكلمت كثيراً إلى جاري، لأنني في حالة غضب. . فقد كنت أحب أن أجلس إلى كاتبي المفضل ولو لعشر دقائق.

فقالوا: إنك جلست وتحدثت إليه طول الوقت! . .

ولم يكن الرجل يعرف أن الذي جلس إليه وناقشه هو: ه. ج. ولز. نفسه. وسكت الرجل وقال: شيء غريب. . هذا الذي لا يعرف كيف يتكلم؟ . . لقد سألته إن كان قد قرأ كتاباً واحداً من تأليف ه. ج. ولز، فقال إنه لم يقرأ ولا يحب ذلك ـ وهذا هو الذي ضايقني أكثر!

* * *

يقال إن الرئيس الأمريكي كوليدج ذهب لزيارة بيت الشاعرة إميلي دكسون. وعرضوا عليه أوراقها الخاصة. وأعطوه إحدى قصائدها المحفوظة في الأرشيف بعد وفاتها. . فقلبها الرئيس وقرأها ثم قال: ياه. . إنها تكتب بالقلم. . أما أنا فأملي خطاباتي. . أنا أفضل كثيراً! . .

هذا كل ما رآه في أديبة عظيمة!!

* * *

ويقال إن دكتور جونسون، الأديب المعروف أقاموا له وليمة فخمة. وتأخر عن الحضور ثم جاء مسرعاً. ولكن البوليس منعه. فقد وجدوه مهلهل الملابس ضئيلاً منكوش الشعر.. وقال لهم: بل أنا د. جونسون. ولكن أحداً لم يصدقه.. حتى أن واحداً من المدعوين قال: لم أكن أتصور أنك هكذا.. إذن فأنت د. جونسون.. على أي حال.. تفضل!..

* * *

في القرن التاسع عشر عاش ومات الشاعر الألماني كلوبستوك. سافر إليه أحد المعجبين مسافة خمسمائة كيلو متر ليسأله عن معنى إحدى قصائده. فقابله الشاعر وراح يلف به أمام البيت وحوله. ثم قال له وهو في حالة سرحان شديد: وأنا لا أعرف معنى هذه القصيدة.. أرجو أن تمضي ما تبقى لك من العمر في محاولة فهمها. ثم ابعث لي برأيك!..

ثم دخل وأقفل الباب وراءه!.

* * *

ويقال إن أولاد الأديب سوفوكليس رفعوا أمرهم للقضاء مطالبين بالحجر على والدهم، خوفاً من أن يبدد أمواله. وذهب الأديب إلى المحكمة. وسأله القضاة إن كان حقاً هو الأديب العظيم. فقال: أديب؟ نعم.. عظيم؟ لا..

فقال أحد القضاة: ولكن ملابسك وشعرك.. وأصابعك في أنفك.. وهذا الذي يخرج من فمك.. والدموع التي تسيل من عينك.. وأنت هو؟..

فضحك الأديب وقال: رغم كل ذلك فأنا هو. قال القاضي: أولادك يقولون إنك مجنون!..

قال الأديب: هذه مسرحية فرغت منها اليوم.. أعطيها لك.. وأتلوها عليك كلها من الذاكرة!..

وكان ذهول القضاة والمحلفين وأولاده عظيماً عندما قالها من الذاكرة كلها!

* * *

وما من أديب إلا يريد أن يلتقي بقرائه. أن يعرف منهم الذي وجدوه فيه أو وجدوه عنده؟ ما الذي يريدونه أن يقول؟ هل وجدوه عند حسن الظن به؟ هل خلا بهم أو تخلى عنهم؟ متى كان لسانهم؟ ومتى كان أذنهم؟ ومتى كان القلم الذي في أيديهم؟ فالكاتب يغني أو يخطب لمن لا يرى ولمن لا يعرف.. حتى تجيء إليه الخطابات فتقول له.. توجهه وتطلب من المزيد.. وتصفق له، أو تستنجد به..

ولكن الكاتب يكتب للناس عن الناس في مواجهة الناس، وعلى الرغم منهم..

* * *

كانت الأضواء باهرة ساطعة في قاعة المحاضرات في المعرض الدولي للكتاب . . عن يميني الأديب د. سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب. وعن يساري الأديبة سميحة غالب صاحبة الصوت الهادىء الرزين والوجه المحبوب في التليفزيون . . والأسئلة كثيرة. وهي التي تختار. والضيوف الكرام يسألون. والكلام طويل والوقت قصير. بعض الأسئلة أجبت عنها، والباقي في مكتبي مع عدد من شباب جامعات مصر. وأسعدني ذلك.

وأنقل هنا بعض الذي قلت. الإجابة فقط. وليس من الصعب معرفة السؤال . .

* * *

الذي ينشر الكتب والذي يوزعها كلاهما يكسب أكثر من المؤلف . . أما إحساسي فهو مثل إحساس حصان السباق عندما يرى الكأس قد أعطيت للجوكي! . .

* * *

شاعر قديم بسيط قال هذه الحكمة :

إن قل مالي فلا خل يصاحبني
أو زاد مالي فكل الناس خلاني
فكم عدو لأجل المال صاحبني
وكم صديق بفقد المال عاداني

أو ما قاله شاعر أظرف حاول أن يتفلسف:

من كان يملك درهمين تعلمت
شفتاه أنواع الكلام فقالا
لولا دراهمه التي يزهو بها
لوجدته في الناس أسوأ حالاً
إن الغني إذا تكلم مخطئاً
قالوا: صدقت وما نطقت محالاً
أما الفقير إذا تكلم صادقاً
قالوا: كذبت وأبطلوا ما قالا

* * *

شعب يأكل أرضه: شعب يتآكل!

* * *

أقسى من القسوة على الناس: ألا تبالي بهم!

* * *

الفن مثل سور من الورد حول حقل الحضارة!

* * *

في كل مرة يموت فنان يذهب جزء من بصيرة الإنسانية ويختفي معه!

* * *

الفنان الحقيقي ليس هو الذي يكمل عمله، وإنما هو الذي ينصرف عنه بعض الوقت ـ فالفن لا يكتمل أبداً!

* * *

لا جديد في الفن: إلا موهبة!

* * *

الرسم شعر صامت.. والشعر رسم يتغنى!

* * *

نحن نصف الخرافات التي نصدقها بأنها حقائق، والحقائق التي لا نصدقها بأنها خرافات!

* * *

لا يصح أن نبتلع من الخرافات ما لا نقدر على هضمه!

* * *

الشيء الوحيد الذي ليس له أثر رجعي: تحديد النسل!

* * *

أنا لا أقرأ بسرعة، ولكن أقرأ طويلاً وكثيراً!

* * *

نحن نغفر أحياناً للذين يبعثون فينا الملل ولا نغفر للذين نبعث فيهم الملل!.

أسهل أن تحب الإنسانية كلها من أن تحب جارك!.

* * *

كما في التجارة: لكي تنجح لا بد أن تكون أجرأ وأسبق وأكثر اختلافاً عن الآخرين!.

* * *

في الرأسمالية يستغل الإنسان الإنسان، وفي الإشتراكية عكس ذلك.

* * *

الخوف من الرأسمالية أرغم الإشتراكية على إعطاء المزيد من الحرية، والخوف من الإشتراكية أرغم الرأسمالية على إعطاء المزيد من المساواة!..

* * *

الإنسان يفسد الطبيعة فيقتل النبات والحيوان الذي يعيش عليه!..

* * *

ـ ما هو الشيء المؤكد؟

ـ الموت

ـ ما هو الشيء المستمر؟

ـ التغيير!

ـ من الذي ينام بعمق كالأطفال؟

ـ من ليس عنده أطفال ! . .

ـ وما الذي يجعل الأطفال ينامون هكذا بعمق ؟ .

ـ لأنه ليس لهم إلا حاضرهم . . لا ماضي يندمون عليه ولا مستقبل يخافون منه ! . .

ـ هل تذكر ما قاله الفيلسوف طاليس؟ . .

ـ نعم . قال لأنني أحب الأطفال لم أنجب أحداً منهم !

* * *

الحضارة الإنسانية مثل النهر والشاطئين . فالمجرى به كثير من الدم والسرقة والصراع . . بينما على الشاطىء أناس يبنون ويزرعون ويغنون ويرقصون ويحبون ويرسمون اللوحات ويقيمون التماثيل . . والحضارة هي تاريخ كل ما يحدث على الشاطىء . .

والمتشائمون هم الذين يسجلون ما يجري في النهر . . والمتفائلون يسجلون ما يحدث على الشاطىء . ولكن الحضارة هي النهر والشاطئان معاً .

والمدارس والجامعات ليست إلا محطات إذاعية لكل ذلك . .

والمستعجل ليس متحضراً ! . .

* * *

الأدباء يزأرون إذا كان للشعب قلب أسد ! . .

الأديب الشاب كالفتاة الجميلة عندما تقول لك: قل لي الحقيقة. . صارحني. . فهي لا تقصد ذلك وإنما تريدك أن تمتدحها!

* * *

شاعر قديم لعله الحريري صاحب «المقامات» هو الذي قال:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده
فإن جرى طاب، وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه
وإن أقام فلا يعلو على الرتب.

* * *

الثقافة هي كل أشكال الفن والحب والفكر التي جعلت الإنسان قادراً على أن يتحرر أكثر. .

* * *

الثقافة هي بالضبط ما يحتاج إليه الجزار ليكون جراحاً! . .

* * *

سياسياً: أؤمن بالديموقراطية . . فنياً: لا أؤمن بذلك لأن انتشار الذوق الواحد ليس دليلاً على أنه رفيع!

* * *

ـ ما هي سخرية القدر؟

ـ أن تبحث عن رجل أمين في ضوء مصباح مسروق!

ـ ما هي مزايا الأنانية؟ . .

ـ ألا تتحدث عن أحد سواك! . .

* * *

اجتماعياً: أفعل ما يفعله الآخرون . .

فنياً: أبداً!

* * *

شاعر قديم أيضاً يقول:

تتيه على العشاق في حلل خضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر
فقلت لها: ما الإسم؟ قالت ـ أنا التي
كويت قلوب العاشقين على الجمر

شكـوت إليهـا ما أقـاسي من الهوى
فقالـت: إلـى صخـر شكـوت ولـم تدر
فقلـت لهـا: إن كان قلبـك صخرة
فقـد أنبـع الله الـزلال مـن الصخر!

* * *

الأكاذيب القديمة أكثر شعبية من الحقائق الجديدة!

* * *

يرضى عن نفسه تماماً: كل إنسان فاشل!.

* * *

لن يدخل النار من يحقد عليك، إنه فيها!

* * *

الحرية: هي حقك في الاختيار، وفي أن تصنع لنفسك بدائل عن هذا وذاك.. ومن غير حرية للاختيار، فلست إنساناً. وإنما أنت أداة.. شيء.. لا شيء!

* * *

إما الحرية وإما الأمان؟ أبداً!.. الاثنان معاً وإلا.. فلا!

* * *

المجتمع الحر هو الذي لا يخاف فيه الإنسان أن يختلف عن الآخرين!

* * *

صراع الأجيال هو محاولة مستمرة لإنقاذ الحرية من أنياب السلطة!

* * *

أنت لا تستطيع أن تستمتع بكامل حريتك، إلا إذا نزلت عن جزء منها!

* * *

لا يستحق الحرية لنفسه من ينكرها على الآخرين!

* * *

الحرية قد تفسدك، ولكن الحرية المطلقة تفسدك إطلاقاً!

* * *

الفنان ليس في قلق على الجنة والنار، فسوف يجد أصدقاء في كل مكان!

* * *

بدلاً من أن تقابل أعداءك بلطف حتى تكسبهم، عامل أصدقاءك بلطف حتى لا تخسرهم!

* * *

لكي يكون لك صديق : أغمض إحدى عينيك ، ولكي تحتفظ به أغمض الاثنتين!

* * *

الفرق بين الصديق والعدو:

أن الصديق يطعنك في بطنك ، والعدو في ظهرك!

* * *

بل أضحكني كثيراً ما قاله الشاعر الظريف البهاء زهير حين قال :

وعلمت ما قد قاله عني ، وما قد ظنه
وسمعت عنه بأنه يغتابني وبأنه . .
وكأنه كلب عوى لا ، بل أقول بأنه . .
فلأكوينّ جبينه ضرباً وأقطع أذنه
وأكون كلباً مثله إن لم أصدق ظنه
لو كان أهلاً للجميل تركته ، لكنه . .

* * *

دولة يحكمها التافهون : فالموهبة في خطر!

* * *

الممثلة الجميلة المجرية «زازا جابور» هي التي قالت:

لم أكره أي رجل لدرجة أن أعيد إليه كل هداياه!

كما أن هناك حباً أفلاطونياً، هناك كراهية أفلاطونية أيضاً!

* * *

نعم.. فالذين صنعوا التاريخ، لم يتسع وقتهم لكتابته!

* * *

الحب: إعجاب بالقلب!

والإعجاب: حب بالعقل!

* * *

متعة للشاب، مرض للرجل، قدر للشيخ: الحب!

* * *

إذا كنت لا تخفي عنها شيئاً:

فأنت ـ إذن ـ تحبها!

* * *

الفلوس لا تشتري الحب، ولكنها تدعم موقفك التفاوضي!

* * *

عنده كل صفات الكلب إلا: الوفاء!

* * *

الصحفي: أديب مستعجل!

* * *

سامح أعداءك: لا شيء يغيظهم أكثر!

* * *

لا بد أن الله يحب رجل الشارع، فقد خلق منه ألوف الملايين!

* * *

صورة جميلة لشاعر قديم اسمه ابن ذهب الأندلسي.. لرجل تقدمت به السن فنظر في المرآة، بعد أن مسحها جيداً، فوجد صورة لم يكن يعرفها، فتساءل عن الشاب الذي كان يراه قبل ذلك ودار الحوار بينه وبين المرآة يقول:

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شييناً لست أعرفه
وكنت أرى فيها، قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي كان مثواه هنا.
متى ترحل عن هذا المكان متى؟
فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت.
قد كان ذاك، وهذا، بعد ذاك أتى.

هون عليك فهـذا لا بقـاء له
أمـا ترى العشب يفنـى بعدمـا نبتاً
كان الغوانـي يقلن يا أخـيٌّ فقد
صار الغوانـي يقلن اليـوم يا أبتا!

* * *

لا تأخذ هذه الحياة جادفا، فلن تخرج منها حياً!

* * *

وأخيراً أربعة أسئلة تقصف عمرنا وتقضي عليه وعلينا ونحن نرددها:

هل هذا خطأ أو صواب؟

هل هذا صدق أو كذب؟

هل هذا جميل أو قبيح؟

هل هناك جدوى من هذه الأسئلة الثلاثة؟!

كانت جريمتي: أنني سرقت لحظة أضفتها إلى عمري الإفتراضي

الدنيا ليل لا أعرف أوله ولا آخره..

وأنا أمشي على شارع أسود.. كأنه ليل تمدد على الأرض..

وأنظر إلى السماء فأجدها سوداء، كأنها سقف أسود تجمد فوق رأسي..

لا أرى شيئاً.. فلا شيء هناك.. ولا أسمع شيئاً، فلا صوت هناك..

وإنما صوت قدمي، أدق بهما الأرض، وكأن الأرض باب أسود، وقد تتابعت الدقات، دون أن ينفتح الباب..

إذن ليس باباً، فالأبواب لا ندقها بالقدمين.. والأبواب لا نمشي فوقها.. أو لعله باب، ولكن لا أحد وراءه.. أو لا أحد تحته..

إذن هذا الباب الملقى تحت قدمي، ليس إلا ظهر سفينة.. سفينة لا تتحرك.. وإنما أنا فوقها أتحرك.. بل إنني لا أتحرك، وإنما أتوهم ذلك.. لأنني لا اقترب من شيء، ولا أبتعد عن شيء..

ولكنني أجد قطرات الماء، تلمع تحت قدمي، إذن الأرض

تحت قدمي. . وأرى قطرات تلمع فوقي، فالسماء فوق رأسي. .

إذن لا أحد غيري أنا والليل. .

وكأن الليل حيوان أرهقه الوقوف، أو أضناه الظلام، فانهار حولي.

فكل شيء ظلام. .

الشارع ليل مظلم، والليل شارع يتألق. . بل إنني لا أرى نفسي. . إنني أحس بنفسي فقط. أتحسس ساقي بيدي، وأتحسس بحذائي يدي. . فأنا أيضاً ليل يمشي على ليل. . كلنا ليل. .

وقد استطال الليل واستعرض. .

فإذا كان الليل فوقي والليل تحتي والليل حولي والليل أنا. . فأينا الليل؟ وأينا أنا؟

وإذا كان وقع حذائي دليلاً على حركتي، وحركتي دليلاً على وجودي، فمن أين يبدأ وجودي؟ من حذائي؟ من وقعْه؟ من صداه؟

إنني لست على يقين من أن الصوت الذي أسمعه هو صوت حذائي. . لماذا لا يكون صدى حذاء آخر؟ . لماذا لا أكون أنا وحذائي نمشي في مظاهرة طويلة تتردد أصداؤها

حولـي وفـي داخلـي؟. فلعلـي أهتف بحذائــي: يعيش. . يسقط. .

لماذا لا يكون صداي في مكان آخر. .

وكمـا أن للصوث صدى، فالألـوان لهــا صـدى أيضاً. . فالشارع صدى الليل - أي ظلــه، والليل ظل الشارع وصداه. . وعندي أنا تلتقي الأصوات والأصداء والظلال.

وأنا لا أتحرك، وإنما أقف في «حلق» الليل. .

أو كأن الليل طبقتان واحدة فوقي والأخرى تحتي. . وأنا أتحرك بين الطبقتين. .

نملةٌ أنا أدب على الليل، تحت الليل. . قطعة من الليل تزحف عليه. .

هل أنا ذلك البطل الإغريقي: سيـزيـف. . حكـم عليـه الليل بأن يتسلق جبال الليل ويدفع أمامه قطعة من الليل. . فإذا بلغت القمة انحـدرت إلـى السفـح. . وهكـذا أدفعهـا واندفع وراءها إلى الأبد. .

أو هل الليل هو البطل سيزيف وأنا الحجر الـذي يدفعـه أمامه من تحت إلى فوق إلى تحت إلى فوق إلى غير نهاية؟.

هل أنا علامة تعجب من كل الذي يحدث أو لا يحدث؟. الشارع متعجب من الليل، والليل يتعجب للشارع. . وأنـا

الحيرة التي هي دليل على أن أحداً لم يتوقف عن التفكير ولم يعرف اليأس . .

وهل هذا الصوت الذي أسمعه ، هو صوت حذائي أو هو صوت رأسي؟ .

هل أنا مسمار يدقه الشارع في السماء . . ثم يعود فيخلعه . . يخلعني . .

هل أنا تطوير جديد لأسطورة سيزيف . . السماء تدقني في الأرض . . ثم تخلعني . . ثم تعود فتدقني . . فلا رأسي قد انكسر، ولا الأرض قاومت . . ولا توجعت . . ولا فقَدت الصبر، ولا السماء فقدت الأمل . . ولا أنا عرفت الندم والتوبة . . ولا تحقق شيء من العدل . .

إذن نحن جميعاً مسامير في الليل . . في شارع الليل في سقف الظلام . . في أحذية الصمت . . في صدى التعجب . .

إن حيرتي هي الدليل الوحيد على أنني مختلف عن الليل تحت قدمي ، والشارع فوق رأسي . .

بل إن حيرتي هي وحدها القادرة على أن أقلب كل هذه المعاني ، وأضعها في ترتيب آخر: فالشارع تحت قدمي ، والسماء فوق رأسي . .

ثم إنني القادر على أن أجعل الأرض سماء ، والسماء

أرضاً . . وأن أمشي على رأسي ، وأن أشمخ بقدمي . .

شيء عجيب : أن هذا الإنسان حين يريد أن يجد لنفسه معنى ، فإنه يجعل لحذائه معنى . . كأنه لم يكتف بوجوده هو ، فأضاف إليه وجوداً آخر . . فأنعم على الحذاء بالوجود . . وعندما امتلأ بوجوده ، فاضَ الوجود على حذائه ثم جعل للشارع وجوداً سامياً وجعل للسماء قبة لا نهائية . .

شيءغريب أيضاً : عندما أعطيت لحذائي وجوداً ، لم أعد أشعر به . . كأن وجود حذائي هو «الصحوة» التي تسبق الموت . . وبعدها يجيء الموت . .

بل أنني أيضاً قد تلاشيت . . ذبت . . انعدمت . . كأنني انطفأت . .

كأنني عود كبريت اشتعل فجأة فأضاء شبراً من الأشكال والألوان والقطرات ثم مات . . وسحب الوجود معه إلى العدم . . سحب الليل غطاء أسود على وجود عابر . . على جثة عود كبريت . .

أو كأنني كنت أسكن في ثوب من الحديد ، كما كان يفعل جنود العصور الوسطى . . ثم رفعت الغطاء عن رأسي ، وأخرجت رأسي ، فرأيت وسمعت . . ثم أخفيت رأسي ، فاختفى كل شيء من عيني وأذني وأنفي . . وتراجعت ميتاً واقفاً في كفن الليل . .

كأنني عقب سيجارة احترقت فأضافت بدخانها قطعةً من الليل إلى الشارع . .

ثم وجدتني فجأة جالساً على حافة بحر . . من المؤكد أنه بحر . . فالأمواج لها هدير . .

وهي أمواج من الليل تهدر في الليل وتضرب شاطئاً من الليل وتغرق ذرات من الليل - إنني لم أر شيئاً ، ولكنني من الذاكرة أعرف كيف تنكسر الأمواج وتزحف على الرمال وتحاول أن تزحزح الصخر والشاطىء . . فلا تزحزح الشاطىء ، ولا عرفت الأمواج اليأس . .

وصرخت من أعماقي : يا سيزيف في كل شارع وكل سقف وكل بحر وكل عقل وكل خوف . .

ولم أتحرك من مكاني . . لم أنقل قدماً عن قدم . . وإنما رحت أحرك ساقي وأنا في موقعي . .

لقد أكلني الصمت . . أو أنا الذي أكلته . . أو أننا تآكلنا . . شيء واحد أنا على يقين منه : هو أنني حي أتحرك . . أجلس ساكناً أو أتوهم ذلك . .

كأنني «توقيع» على لوحة الليل . .

هذه اللوحة الرائعة المروعة لجلال البحر وجمال الشاطىء . .

فلم تكتمل أبهة الكون حولي ، إلا عندما أضافني الكون

إلى كل شيء فأضاف المعنى . . والقلق والحيرة . .

ثم أنني أتحرك وأدور في مكاني . . فليس صحيحاً أنني حر في حركتي وفي وهمي . . بل أنا حبيس تماماً . . وسجني طويل عريض . . صحيح أنه بلا قضبان . . ولكنه بلا نوافذ ولا أبواب ولا جدران . . إنه أوسع سجن عرفته . . إنني الآن في سجنين معاً : سجن جسدي ـ ثم هذا الذي أخوض فيه . .

إذن لقد صدر حكم ما ، بسجني على ذمة التحقيق . . أو سجني بلا محاكمة . .

لا بد أن جريمتي هي أنني حاولت أن أفهم وأنني ضُبطت متلبساً . . فكان اعتقالي في داخلي أولاً ، ثم إيداعي في سجن الليل ثانياً . .

ولما تمت أقوالي كان لا بد أن أوقع على محضر الوجود . . فرفضت . . ولما رفضت فإنهم «بصموني» ـ أي ضغطني الليل من تحت ومن فوق فكان وجودي بصمة . . وصمة . .

وأعجبني هذا المعنى . . وكان ذلك سر شعوري بالارتياح . . فأنا أحب أن تكون لي بصمة . . يراها الناس وصمة . . ولكن إذا خيروني بأن أعيش بلا وصمات أي بلا بصمات ، وبين أن أعيش في قمة التفاهة ، لاخترت السجن والبصمات . .

إذن جريمتي أنني حاولت أن أرفع رأسي عالياً لأرى أوضح ، وأن أفتح رأسي واسعاً لأفهم أعمق ، لعلي استوعب ما أقدر عليه ، فاستوعبت ما لا أقدر عليه . . إنها نفس جريمة «بروموثيوس» ذلك البطل الإغريقي الذي ذهب إلى السماء وسرق النار وأعطاها للإنسان . . فكانت من النار كل قوى الإبداع ، وكان منها النور أيضاً . .

وهذا بالضبط ما أفتش عنه في قلب الظلام . . وأنا قلب الظلام . . وليست حيرتي إلا محاولة مستمرة لأن أجد بصيصاً من النار والنور . . وليس هذا الحذر في كل خطوة إلا نوعاً من التلصص لعلي أسرق النار والنور من نجوم السماء وأضيء بها الأرض . . ويكون هذا الضوء هو الخيط الأبيض الذي تبدو فيه بقية الخطوط السوداء في نسيج الليل والشارع والبحر والشاطىء وأنا والكون كله . .

أو هكذا توهمت . .

وأنا توهمت فعلاً . فأنا في مكاني هذا منذ وقت طويل . . ولما تعب رأسي من حركة الفكر في داخله ، جعلت أحرك قدمي . . وكأن قدميّ رأسان بغير فكر . .

فأنا لم انتقل من مجلسي . . من مقعدي . . من رقدتي . . أو من هلوستي . . نعم فالكون كله يهلوس . . ولست إلا صداه . . أو ليس الكون إلا صدى . .

فلا وجود لكل الذي حولي إلا لأنني موجود . . فلولا أذناي ما كان لأمواج البحر هدير . . ولولا عقلي ما كان الليل والشارع هكذا جداراً . . سابقة التجهيز . . من علامات الاستفهام والتعجب تكومت وتكدست فكانت هكذا صماء متينة تعترضني مع أنها جميعاً من صنع وهمي وهذياني . .

نعم هذياني : فالسماء هذيان الأرض . . والأرض هذيان البحر . . وليست أفكاري إلا صدى الجميع . . أو الجميع صدى أفكاري . . فالكل حولي يهذي . . وأنا شاهد الإثبات الوحيد على كل ذلك . .

وكما تلمع النجوم وتخبو . . كذلك أفكاري وحيرتي ودهشتي . . إنها هي أيضاً نجوم مظلمة تماماً مثل بقع الشمس التي هي ظلام متوهج . . وأفكارنا تلمع تحت الجلد . . تلمع لنا ولا يراها أحد . . فهي لامعة لنا ، مظلمة لغيرنا . . إنها هي الأخرى متألقة الظلام . .

ثم إنني أحس شيئاً من الراحة . . لا أعرف مكانها ولا مصدرها . . وليست هذه الراحة وهماً وإنما هي شعور غريب بأن العدل تحقق في الظلام . . في الظلام انحلت المشكلة العنصرية : فلا أبيض ولا أسود ولا أصفر . . وفي الظلام انحلت المشكلة الجنسية : فلا ذكر ولا أنثى ولا هو ولا هي . . واختفت المشكلة الطبقية : فلا رأسمالية ولا شيوعية . . وانعدمت المشكلة الدينية : فلا هلال ولا

صليب . . واختفى الصراع فلا أحد يقول: أنا وأنت . . نحن وهم . .

فالكل واحد، والواحد كل . .

واختفت مشكلة المكان: فلا أرض ولا سماء، ولا قريب ولا بعيد . .

وانعدم الزمان: فلا ليل ولا نهار ولا يوم ولا غد . .

. ولكن كيف تحقق كل ذلك العدل؟

إذن هي القيامة قامت . . وإذن نحن في نهاية الخلق وقد نصب الله ميزان العدل بين السماء والأرض . . فالسماء أرض والأرض سماء وهذا هو العدل . .

والإنسان حيوان والحيوان إنسان، وهذه هي المساواة . .

وكما خرجت الحياة كلها من البحر فإنها قد عادت إلى البحر . فالماء والشاطىء والظلام جميعاً: هواء . . هباء . . اختفاء . .

إن سعادتي التي أنا على يقين منها هي: أن كل شيء قد مات وانعدم ولسبب لا أعرفه . .

لقد كنت شاهداً حياً على نهاية كل حي . .

ولكن لست سعيداً بكل ذلك . . فالإنسان لا يكون سعيداً

إلا إذا روى هذا الذي رأى، وعبّر عن هذا الذي أحس. . ثم رأى بريق ذلك في كل عين. .

ولما لم يكن أحد هناك، ولن يكون، فكل هذه المعاني ولدت لتموت في داخلي. . وأكون نعشها وليكون الكون معه نعشي. . فأن لم أكن قد وجدت واحداً أروي له كيف كانت النهاية والبداية، فقد توهمت أنني سوف أحكي ذلك لأحد. . وهذا الوهم هو الذي أسعدني هو الذي أضاف إلى عمري الإفتراضي لحظة واحدة. . هذه اللحظة أضفتها أنا إلى وجودي دون إذن من أحد. . سرقتها كما فعل بروموثيوس. . ولما كانت السماء تعرف أن الإنسان لص بطبعه، فقد عوقبت أنا على سرقة النور بهذا الظلام اللانهائي. .

* * *

اعتراف أخير: إن الذي حدث ليس إلا حالة يأس غريب. . فقد جلست أقلب في فنجان قهوة. . وحاولت في الظلام أن أقرأه. . فقد تعلمت ذلك في بلاد الصين. . ولم استطع أن أرى شيئاً. . فخلعت إحدى عيني وألقيتها في الفنجان. . ورحت أرج الفنجان وعيني معاً، لعلي أرى بعين واحدة ما لا تقوى على رؤيته العينان. . وجعلت أرى بعيني ما الذي تفعله عيني الأخرى. . ولم أتبين شيئاً. . فخلعت الأخرى وألقيتها في الفنجان. . ورحت أرج عيني

في ظلام الفنجان . . فعيناي بغيري لا تريان ، وأنا بغيرهما لا أرى . .

هذا كل ما حدث . . وهذا كل ما جرى لي وما جرى عليّ . .

ألا ترى أن فنجاناً داكناً من الممكن أن تطل منه على الكون . . إن الفنجان نافذة مسدودة . . ولكن هذه النافذة المسدودة المظلمة هي التي انفتحت على هذا الكون المظلم أو على هذا الظلام الكوني ، حولي وفي داخلي . .

وكل ما حدث هو أنني قلبت عينيّ في قاع الفنجان وعلى جدرانه . . كما قلبت رأسي في قاع الكون وعلى سقفه . . فكان الذي سبقتك إلى تسميته بالهذيان ، وسبقت السماء إلى وصفه بأنه وهم . . وسبقت العدالة بالحكم عليه بأنه «جريمة» . . ثم سابقت عقلي وقلبي فأحسست بسعادة خاطفة . . سعادةِ مخطوفة . . بغير إذن من أحد . . !

الفهـرس

الموضــوع	الصفحـة

رقم الإيداع . ١٩٨٨/٣٨٨٧
الترقيم الدولى : ٧ ـ ٢٣٢ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣